

لُبَابُ الْخِيَارِ فِي سِيرَةِ الْمُخْتَارِ

تأليف

الشيخ مصطفى الغلاييني

١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن جعل أخبار الأوّلين موعظة للآخرين، وسيرَ الماضين عبرة للحاضرين والآتين، وصلاةً وسلامًا على رسوله الأمين، قدوة المتقين، وإمام المرسلين، أرسله على حين فُترة من الرسل، فهدى به قومًا فسقوا عن الهدى الإلهي، وحادوا عن الوحي القلبي. وعلى آله وأصحابه، ومن تأدّب بأدبه.

وبعد؛ فلما كانت سيرة هذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم، من أهم ما يجب على الأمة تلقّيه، وينبغي درّسه وحفظه، ولا سيما تلك النابذة التي قضي عليها، كما قضي على أكثر العوام، أن لا تعرف شيئًا من أخبار نبيها وأحواله وأعماله، وشمائله وفضائله، دعاني حُب الخير لأولئك العوام، والطلاب الكرام، أن أضع سيرة وسطًا بين السيّر: أذكر فيها ما تهم معرفته كل مُسلم، مُتَجَنِّبًا في ذلك التطويل والتقصير، طاويًا كَشْحًا عما لم يصح، أو كان في روايته ضعف من عقل أو نقل؛ لتكون ذخيرة لطالبيها، نافعة للراغب فيها. فجاءت بحمد الله وافية بالغرض على ما أظن. وكنت قد ابتدأت بتأليفها درسًا فدرسًا، وكنت ألقى ذلك شفويًا، ثم كتابة على قسم من التلاميذ في الكلية الإسلامية في بيروت. وقد أودعت في أثناء الكلام بعض التعليقات الجديرة بالاعتبار. في فلسفة الحوادث المهمة، وعلل بعض الأحوال، وبيان بعض الأمور المشكّلة، ولما بلغت النهاية سمّيتها:

خيار المَقول في سيرة الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

ثم رأيت بعد ذلك أن أختصرها، لما وجدت من الحاجة إلى ذلك، فاختصرتها في هذه الرسالة على وجه الإيجاز، ولم أذكر فيها سوى شذرات مهمة من أحواله وأعماله، مع ذكر جميع غزواته، وضربت صَفْحًا عن سراياه، إلا ما كان له تعلق ببعض الغزوات، فقد نبهت عليه في الحاشية بعلامات خاصة، وأتبعتهَا بخاتمة ذكرتُ فيها أولاده وأزواجه وأعمامه، وعمّاته وغير ذلك، وهيئته وبعض أخلاقه ومعيشته، ثم بنموذج من معجزاته، وشيء من جوامع كلمه، وسمّيتها:

لباب الخيار في سيرة المختار

فأسأل الله أن يجعلها مقبولة لديه؛ إنه خير مسؤول لا بل لا مسؤول سواه. وقد جعلتها هديّة لعوام الأمة وتلاميذ المدارس، لتكون لهم عوناً على درس بعض شمائله وأعماله وأخلاقه العظيمة المهمة التي جاء بها -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

مصطفى الغلاييني

بيروت سنة ١٣٢٣هـ

وسنة ١٩٠٥م

إجمال عن العرب قبل الإسلام

[بلادهم وموقعها]

جزيرة العرب واقعة في الجنوب الغربي من آسية. ويحيط بها البحر الأحمر وصحراء التيه (المتصلة بترعة السويس) من غربها، والخليج الفارسي من شرقها، وبحر عُمان (الذي هو قسم من بحر الهند) من جنوبها، والصحاري الممتدة بين بلاد الشام والفرات من شمالها.

ومساحتها ١,١٠٠,٠٠٠^(١) ميل مُربع، أو ٣,١٥٦,٥٥٨^(٢) كيلومترًا مُربعًا، أو ١٢٦,٠٠٠^(٣) ألف فرسخ مربع. وقد عملنا حسابها بالميل والكيلومتر والفرسخ، فجاء الحساب متقاربًا ونفوسها اثنا عشر مليونًا، وقيل عشرة ملايين.

وهي تُقسَّم إلى ثمانية أقسام:

القسم الأول: الحجاز، وهو الواقع في الجنوب الشرقي من أرض (طور سينا) على ساحة البحر الأحمر، وسمي حجازًا لأنه حاجز بين تِهَامَة وَجْدٍ. وتِهَامَة محصورة بين الحجاز واليمن. ومكة المكرمة والمدينة المنورة من هذا القسم. وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، والكعبة في وسطه، وبجانبها الحجر الأسود. ومكة هي البلد الذي وُلد فيه الرسول ونشأ، وفيه أكرم بالنبوة، وتسمى أيضًا: (بكة)، وقيل إن بكة هو بطن مكة، سمي بذلك لازدحام الناس فيه؛ لأنه يُقال: بكة إذا زحمه. وتسمى (أم القرى) وكانت تسمى في القديم (الباس) و(الباسة) و(البَساسة).

وأما المدينة المنورة فكانت تُسمى: (يثرب). وهي دار هجرة الرسول وقُطب نصرتة، وفيها قبره الطاهر. ولكل من مكة والمدينة حرمٌ له حدودٌ مذكورة في كتب الفقه. وأرض تِهَامَة تُحسب اليوم من الحجاز.

(١) أي مليون ومئة ألف.

(٢) أي ثلاثة ملايين ومئة ألف وستة وخمسون ألفًا وخميس مئة وثمانية وخمسون.

(٣) أي مئة وستة وعشرون ألفًا.

القسم الثاني: اليمن وهو الواقع في جنوب الحجاز، وفي شماله بلاد عسير. وفيه عدة مدن مشهورة بتجارة البُن، وهي (مخا) و(حديدة) و(عدن). وفيه مدينتا سبأ (مأرب) وصنعاء. وسميت اليمن بهذا الاسم لوقوعها عن يمين الكعبة إذا استقبلت المشرق، كما أن بلاد الشام عن شمالها.

القسم الثالث: حضر موت، في شرق اليمن على ساحل بحر الهند، ومنه يخرج العود ذو الرائحة الذكية المعروف بالفاقلي.

القسم الرابع: إقليم مُهَرَّة، في شرق حضر موت.

القسم الخامس: إقليم عمان المتصل بالخليج الفارسي من الشمال، ومن الشرق والجنوب ببحر الهند. ويوجد فيه قليل من النُّحاس.

القسم السادس: الحسا، ويجاوره جزائر البحرين بالخليج الفارسي، ويمتد على ساحله إلى نهر الفرات، وسكان هذا القسم يستخرجون اللؤلؤ.

القسم السابع: نجد، وأراضيه مرتفعة، وهو في وسط الجزيرة بين الحجاز والحسا وصحاري الشام وإقليم اليمامة، وهو يتصل بالشام شمالاً، والعراق شرقاً، والحجاز غرباً. واليمامة جنوباً. وأرضه أطيب أرض في بلاد العرب.

وفي نجد أرض العالية، التي كان يحميها كليب بن وائل بن ربيعة، حتى أفضى ذلك إلى قتله ونشوب حرب البسوس، التي دامت أربعين سنة، وقد ضُرب بها المثل: ((أشأم من حرب البسوس)).

وفيها جبل (عُكاد)، الذي لم تثبت العربية الفصحى بعد فسادها إلا في أهله.

وفي نجد كثيرٌ من الواحات والخيول الجميلة (المعروفة بالكحيل) وهي مرغوبٌ فيها في بلاد الدنيا كافة.

وفي جنوب نجد أرض اليمامة.

القسم الثامن: إقليم الأحقاف، وهو في أرض منخفضة في جنوب بلاد العرب، وفي الجنوب الغربي من عمان. ويلحق به أرض اليمامة وكان هذا الإقليم معمورًا بأقوام من الجبابرة، يقال لهم (عادٌ) وقد أهلكهم الله بريح عظيمة، وأهل عليهم الرمال.

وكانت جزيرة العرب قديمًا تُقسم إلى ستة أقسام: الحجاز، واليمن، ونجد، وتهامة، والإحساء، واليمامة.

فاليمامة بين نجد واليمن، وهي في جنوب نجد بين الإحساء شرقًا والحجاز غربًا. ومن مدائن اليمامة وهجر، وتسمى (العُرُوض) أيضًا؛ لأنها معترضة بين نجد واليمن.

وتهامة تحسب اليوم من أرض الحجاز كما قدمنا، وهي واقعة بين اليمن جنوبًا والحجاز شمالًا.

والإحساء تمتد على ساحل الخليج من عمان إلى أرض بُصرى، وتسمى بالبحرين، ومن مدائن الإحساء والقطيف.

والحجاز قد دخل فيها تهامة، واليمن انفصلت عنه أقاليم حضر موت ومهرة وعمان، ونجد دخل فيه اليمامة والإحساء.

[أنسابهم وطبقاتهم]

طبقات العرب ثلاثة وهي:

العاربة الأولى: أو العَرَبَاء، وتسمى البائدة، وهم العرب الخُلص الأولون وقد ذهبت عنا تفصيلات أخبارهم؛ لتقادم العهد وقد كانوا شعوبًا وقبائل كثيرة. وهم من ولد إرم بن سام بن نوح. وهم تسع قبائل: عادٌ، وثمودٌ، وأمّيمٌ، وعُبَيْلٌ، وطَسَمٌ، وجديس، وعَمَلِيق، وجَرْهُم الأولى، ووَبارٌ؛ ومنهم تعلم (إسماعيل) جدُّ الرسول العربية: وهم أقدم الأمم بعد قوم نوح، وأعظمهم قُدرة، وأشدُّهم قوة وآثارًا في الأرض. وقد انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام. ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام^(٤) وقصور، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان وكانت مساكنهم في اليمامة من جزيرة العرب.

الطبقة الثانية: العرب العاربة الثانية (وبعضهم يسميها بالمتعربة) وهم من ولد جَرْهُم بن قحطان بن عابر، وعابر اسم هود -عليه السلام- وكانت مساكنهم بالحجاز. ويُسمَّون أيضًا بالعرب اليمانية؛ لأن مواطنهم كانت في اليمن. ومن العرب المتعربة، أو العاربة الثانية، بنو سبأ (واسم سبأ عبد شمس)، فلما أكثروا الغزو والسبي سُموا سبأ (وهو ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان). وكان لسبأ عدة أولاد منهم حميرٌ وكهلان وجميع قبائل عرب اليمن، وملوكها التَّبَّاعَة من ولد سبأ المذكور ما عدا عمران وأخاه، فإنهما ابنا عامر بن حارثة ابن امرئ القيس. وكان هؤلاء العرب يغلب عليهم الميل إلى الحضارة. فسكنوا المدن وأسسوا الممالك. ومنهم ملوك الحيرة -أي: المناذرة- وملوك الشام -أي: الغسانيون-.

وكان أهل هذه الطبقة -أي: العرب المتعربة- معاصرين أخيرًا لإخوانهم من عرب تلك الطبقة؛ أي العاربة الأولى وكانوا موالين لهم ومناصريهم. ولم يزالوا مجتمعين في رحاب البادية، بعيدين عن الملك الذي كان لإخوانهم العاربة الأولى، إلى أن تشعبت في الأرض فضائلهم، وتعددت أفخاذهم وعشائرتهم، ونما عددهم، فزاحموا معاصريهم أبناء الطبقة الأولى، وانتهزوا فرصة اضمحلال دولتهم، وانتزعوها منهم على ما يقال، في القرن الثامن قبل ميلاد المسيح -عليه السلام- فاستجدُّوا بالي الدولة بما استأنفوه من عزِّهم.

(٤) الآطام: الحصون. والمفرد أطمٌ بضمَّتَيْن.

وكان قحطان بن عابر أوّل من نزل اليمن وغلب عليها حتى ملكها ولبس التاج، وملك بعده ابنه يعرب، وهو أوّل من نطق بالعربية وقيل: بل أبوه قحطان أوّل من نطق بها من العرب المستعربة -أي: العاربة الثانية-. وليس المراد أنه أوّل من نطق بها على الإطلاق؛ لأنه كان للعرب جيلٌ آخر، وهم العاربة الأولى ومنهم تعلم قحطان وابنه يعرب العربية^(٥).

وقد غلب يعرب على قوم عادٍ في اليمن، وعلى العمالقّة في الحجاز. وولى إخوته جميع أعمالهم. فولّى جرهمًا على الحجاز وولّى عاد بن قحطان على الشَّحْر. وولّى عمان بن قحطان على بلاد عمان.

وكان من نسل يعرب بن قحطان التَّبابعة، ملوك اليمن، المشهورون بالحضارة والتمدن. وفي عصرهم حصل سَيْلُ العَرَم. فأغرق اليمن، وفَرَّق السكان، وجعلهم طوائف. وكانت هذه الحادثة على ما يقال سنة عشرين ومئة (١٢٠) قبل المسيح -عليه السلام-.

وكان من هذه الطوائف آل غسان، ملوك الشام من قَبْل الرومان ويُسمَّون (الغساسنة) ومنها آل المنذر، ملوك الحيرة من قبل الفرس، ويسمون (المناذرة).

الطبقة الثالثة: العرب المستعربة؛ أي التابعة للعرب ومنهم الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويقال لهم (العدنانيون) نسبة إلى عدنان، وهو أوّل شعب اشتهر من ولد إسماعيل وُسُّمُوا بالمستعربة؛ لأنّ أباهم إسماعيل بن الخليل -عليهما السلام- لم يكن عربيًّا؛ بل جاء به أبوه إبراهيم الخليل مع أُمِّه هاجرَ إلى مكة. فتزوج إسماعيل بنت مُضاضٍ، سيد قبيلة جرهم، وتكلم بالعربية التي لم تكن لغة أبيه.

وقد تناسل منه جيلٌ عظيم كانوا شعوبًا وقبائل متفرقة، بعضها بدؤوا اعتاد المعيشة في البادية تحت الخيام. ويُقال لهم الأعراب، ويسمى كل من سكن البادية من العرب أعرابًا، ومفرد الأعراب: أعرابيٌّ. ويعيشون من ألبان الإبل والغنم ولحومها. ويتنقلون من مكان إلى مكان في طلب العُشب والماء وبعضها حَضَرُ يسكن المدن كمكة والمدينة وجدة وغيرها،

(٥) ليس المراد أن لغة قحطان كانت تخالف لغة العاربة الأولى؛ لأنّ اللغة السامية -التي منها العربية- لم تكن في ذلك العهد قد تشعّبت إلى لغات يُخالف بعضها بعضًا، والاختلاف في ذلك العهد كان اختلاف لهجات للغة واحدة، كاختلاف لهجات العربية العامية اليوم، باختلاف الأقطار التي تنطق بها، وهكذا يُقال عن لغة إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-.

ويقال لهم العرب ولم يخضعوا قطُّ لسلطة خارجية عنهم.

ومن ولد عَدنان مَعَدُّ. ومن مَعَدِّ نِزَارٌ. واشتهر من أولاد نِزار أربعة شعوب، وهي: إِياد وأَمار وربيعة ومضر.

وبنو مضر كانوا أهل الكثرة والغلبة في الحجاز. وقد انفردوا برئاسة الحرم. واشتهر من قبائلهم كنانة ثم قريش، التي منها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وقريش^(٦) كانت أشهر قبائلهم. وقد بلغت في القرن السادس من الميلاد المسيحي مَبْلَغًا عظيمًا من الشَّرَفِ وعُلُوِّ الهمة. وقد آلت إليها رئاسة البيت الحرام. وكان لها نوع من السلطة والمشورة على جميع قبائل العرب.

وكان التَّقَدُّمُ في قريش لبني لُؤَيٍّ. وكان سيدهم قُصَيًّا؛ لما كان له فيهم من الشرف والقربة والثروة والأولاد. وقد تولى رئاسة الكعبة سنة (٤٤٠) بعد المسيح. وكان منه بنو عبد مناف. وكان القائم بأمرهم هاشمًا، ثم أخاه المطلب، ثم ابنه عبد المطلب، جد النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وهناك طبقة خامسة نشأت بعد حضارة الإسلام إلى يومنا هذا. وهم الذين فسدت لغتهم على تمادي الأيام، بسبب مخالطتهم غير العرب. وقد مر عليهم أدوارٌ انقرض فيها ما كان لهم من الدولة والسطوة في الجاهلية والإسلام. وهم قبائل عظيمةٌ وشعوبٌ كثيرةٌ. يسكنون الخيام، ويَجُولون في البراري وأشهرهم قبائل عنزة وصخر وسباعة وغيرها.

وقد دخل كثير من عرب الجزيرة المدن وسكنوا حواضر البلاد بعد الإسلام، واختلطوا بأهل البلاد الشامية والمصرية والمغربية، حتى صار يعد كل من تكلم العربية من أهل هذه البلاد عربيًّا.

(٦) قريش يجوز صرفه ومنعه من الصرف. قال الجوهري: ((إن أردت بقريش الحي صرفته: وإن أردت به القبيلة لم تصرفه)).

[ممالك العرب قبل الإسلام]

كانت ممالك العرب قبل الإسلام مُنقسمةً إلى دول كبيرة وممالك صغيرة. فالدول الكبيرة ثلاثة:

أولها اليمن: وكان مقر ملوكها (صنعاء). وأول من ملك منهم قحطان بن عابر. وعابر هو هود -عليه السلام- على بعض الأقوال. وخلفه على ملك اليمن ثمانية وعشرون ملكًا.

ثم انتقل الملك منهم إلى الدولة الثانية. وأول من ملك منها (تَبَعُ الأول) ابن الأقرن. وخلفه عشرون ملكًا، آخرهم ذو جَدَن الحِمَيْرِيُّ، الذي تغلَّب عليه (أَرِيَّاط) قائد جيش النَّجَاشِي ملك الحبشة سنة (٥٢٩م). واستولى على مملكته وضمها إلى مملكة الحبشة. وكان أرياط المذكور يزدرى الضعفاء، ويُكلِّفهم ما لا يطيقون من المشاق. فجزعوا لذلك، وانتموا إلى (أبرهة) أحد رؤساء الجيش. فأخذ يناصرهم، وحارب (أرياط)، وقتله، وقام بالأمر بعده. وبعد موته ملك ابنه (يكسوم)، ثم أخوه (مسروق) فاستخلصها منه (سَيْفُ بن ذي يَزَن) بمساعدة (كِسْرَى أنوشروان) وبعد موته تغلب عليها كسرى. وبقيت تحت سلطتهم إلى سنة (٦٣٤م)، حتى فتحت بالإسلام. وكان العامل عليها حينئذ (بازان) الذي أسلم في عهد النبي -عليه الصلاة والسلام-.

الثانية المناذرة: ملوك العراق وكان مقر ملكهم في (الحيرة) وهي قرية من (الكوفة). وكانوا عُمَلًا للأكاسرة على عرب العراق. وأول من ملك على العرب بأرض الحيرة (مالك بن فهم) وينتهي نسبه إلى قحطان، (وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف قبل الأكاسرة) ثم ملك بعده أخوه (عمر بن فَهْم)، ثم ابن أخيه جَزِيمَةُ بن مالك ابن فهم، ثم غيره إلى تمام ستة وعشرين ملكًا ثم انتزعها ((خالد بن الوليد)) أوائل الفتح الإسلامي، من آخر ملوكها ((المنذر بن النعمان)).

الثالثة الغساسنة:- ملوك الشام. وعددهم اثنان وثلاثون ملكًا. وكانوا عُمَلًا لقيصرية الروم على عرب الشام، وأول ملوكهم (جفنة بن عمرو بن ثعلبة) وآخرهم (جَبَلَةُ بن الأَيْهَم) وقد أسلم في خلافة أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سنة ١٦هـ).

وفي هذه السنة خرج (عمر) إلى الحج، فحج ((جبله)) معه. فبينما (جبله) طائف، إذ وطئ رجل من فزارة إزاره فلطمه جبله، فهشِمَ أنفه. فأقبل الفزاري إلى عمر وشكاه. فأحضره عمر، وقال: ((افتدِ نفسك، وإلا أمرته أن يلطمك)) فقال جبله: كيف ذلك؟ وأنا ملك، وهو سُوقَةٌ!! فقال عمر: إن الإسلام جمعكما وسَوَّى بين الملك والسُّوقَة في الحد)) فقال جبله: ((أتنصر!!)) قال عمر: ((إِنْ تَنَصَّرْتَ ضربت عنقك)). فقال: ((أُنْظِرني ليلتي هذه)). فأنظره. فلما جاء الليل سار جبله بخيله ورجله إلى الشام، ثم سار إلى قُسطنطينية وتبعه خمس مئة رجل من قومه، فتنصروا على آخرهم. وفرح (هرقل) بهم وأكرمهم. ثم ندم جبله على فعله ذلك، وقال:

تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارٍ لَطْمَةٍ	وما كان فيها -لو صَبَرْتُ لها- ضررٌ
تَكَنَّفَنِي فِيهَا لَجَاجٌ وَخَوْفٌ	وَبَعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوْرِ
فِيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَلَيْتَنِي	رَجَعْتُ إِلَى الْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ

وهذه هي الدول الثلاث الكبرى في بلاد العرب.

وأما الممالك الصغيرة فكثيرة، مثل كِنْدَة وغيرها. وكذا الملوك المتفرقون. مثل كُلَيْب ملك بني وائل وتَغْلِب، الذي قتله جَسَّاس بن مُرَّة. ومثل قيس بن زُهَيْر العبَّسي.

[أخلاقهم وعاداتهم]

من أخلاقهم الحسنة وعاداتهم الطيبة: الشجاعة، والعفة، والشهامة والنجدة، وعلو الهمة، والحمية، وحفظ العهود، والإيفاء بالوعود، والمحافظة على الأعراس أشد المحافظة. فقد كان الموت عندهم أسهل من العار، (حتى أدى بهم ذلك إلى دفن بعضهم بناتهم وهنَّ أحياء، خشية العار) ومنها المدافعة عن الجار، وحفظ الجوار، والكرم، والضيافة للغريب والقريب ومنها شدة البأس، وعزة النفس، وإباء الضيم. والولوع بالأشعار لأنها ديوان العرب، وبالحكم والأمثال. ومنها الحلم والفصاحة، والغلو في حفظ الشرف ومكانة النفس.

وأما لغتهم فكانت من أعز الأشياء لديهم. حتى إنهم كانوا يأنفون من مخالطة غير العرب حفظاً لها من العجمة.

ومن عاداتهم السيئة دفن البنات وهن أحياء خشية العار، وقتل الأولاد خشية الفقر والغلو في أخذ الثأر، حتى إنهم كانوا يَشْنُون الحروب التي تزهق فيها النفوس الكثيرة في سبيل الأخذ بثأر رجل منهم. ومنها المنايزة بالألقاب، (والْبَثْرُ: هو اللقب المستهجن القبيح). ومنها ((التَّبَيُّ))، (وهو أن يجعل الولد غير الحقيقي بمنزلة الولد الحقيقي، يرث ويورث). ومنها عبادة غير الله. وكانت عبادتهم على أنواع مختلفة، ولهم آلهة وأصنام كثيرة: كاللات والعزى وهبل ونسرٍ وسُواعٍ ويَعُوث ويَعُوق، وغير ذلك. وكان منهم من يعبد النجوم: كالشمس والقمر وعطارد^(٧) والمشتري وغير ذلك. ومن ذلك أسماءهم: كعبد العزى وعبد يعوث وعبد شمس، ونحوها. وكان في بلادهم كثيرٌ من النصارى واليهود والمجوس.

وكانوا قبلاً موحدين، يعبدون الله على ملة إبراهيم الخليل وإسماعيل -عليهما السلام-. ثم اتخذوا الأصنام لتكون واسعة بينهم وبين الله بزعمهم، إلى أن عبدوها وقدموا لها القرابين، وذبحوا على اسمها الذبائح.

فلما وصلوا إلى هذه الدرجة من الجهل والكفر وعبادة غير الله، أرسل الله إليهم رسوله المصطفى ونبيه المرتضى، فأرجعهم إلى الشريعة الحق: شريعة إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبلهم، فهداهم بعد الضلال، وأرشداهم بعد الحيرة.

(٧) عطارد: اسم متصرف. وفي القاموس، يجوز صرفه ومنعه من الصرف.

تمهيد

اعلم أن الله خلق الخلق، ولم يتركهم سدى، يميلون مع أهوائهم كيف شاءت، بل ربطهم بنظام الحكمة ورابطة النبوة. فكان يُرسل إلى كل قوم رسولاً يرشدهم، وهادياً يعظهم. وكانت الأمة العربية مُفتتفة شريعة إبراهيم -عليه السلام-. ولكن لما طال العهد بها غيروها وبدلوها، واخترعوا أشياء أضافوها إليها، كما زينته لهم عقولهم السقيمة فصاروا أمة وثنية، بعد أن كانوا أمة موحدة. وكثر فيهم الفجور والفسق والقتل والخروج عن دائرة المدنية والدين.

فلما استحکم الجهل فيهم، وضرب أطنابه في قلوبهم، كان من رحمة الله بهم أن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، وهو محمد بن عبد الله النبي الأُمِّيُّ ليُرشدهم إلى الصراط المستقيم، والسبيل الواضحة. وأنزل عليه القرآن الحكيم، وأَيَّده بقوته وسلطانه. فهدى الناس بعد ما ضلوا، وعلمهم بعد ما جهلوا. فحسنت أحوالهم. واستقامت أفكارهم. وقد قاسى من أجل ذلك الشدائد، وتحمل من المشقات والمتاعب، في سبيل الدعوة والنصيحة والهداية، ما لا تقدر عليه الجبال الراسيات، والأعلام الشاخحات. ولكن، بالنظر لما عُهد فيه -عليه السلام- من القوة والنشاط، والثبات أمام العقبات، والمثابرة على الأعمال التي يكون فيها النجاح، قام بالدعوة خير قيامٍ ونهض نهوضاً لم يُعهد مثله في غيره من رُسل الله الكرام -صلوات الله عليهم أجمعين-.

كيف قام الدين الإسلامي؟

مَّا يَجْدُرُ بِالذِّكْرِ أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَسْأَلَةٌ: ((هل قام الدين بالدعوة أو بالسيف؟)). فقد رَكِزَ في بعض الأذهان أنه لم يُمْ إِلَّا بالسيف، ولكن الأمر بعكس ما يظنون؛ لأن الدين أَمْرٌ وجدائي يُساق إليه الإنسان بحادي العقل عند الدعوة إليه، فتُذعن له النفس. فإن أخبر الإنسان على ذلك، فكيف يكون عنده هذا الإذعان؟

والحق الذي لا محيدَ عنده، أَنَّ الدِّينَ إنما قام بالدعوة. والدعوة حياة الأديان. ومن يرجع إلى نصوص القرآن المجيد، وما صح من سنة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وما رواه الثقات من سيرة الإسلام الشريفة، يتضح له الأمر، وتَجَلَّى له الحقيقة.

هل كان الرسول يُعمل السيف في رقاب قريش عندما كانت تُؤذيه في مكة بضروب الأعمال المنكرة، لو نزلت بالجبال لُدَّكَتْ؟

هل أجبر الأنصار أهل المدينة على اعتناق الدين أم دعاهم فأتوه مدعنين؟ ثم هاجر إليهم هرباً من كفار مكة لما هُمُّوا بقتله.

هل؟ هل؟ هل؟ كلا والله. كل ذلك لم يكن. والرسول إنما قاتلهم دفاعاً عن نفسه وعن المسلمين، وَرَدًّا لعدوانهم، وَحِمَايَةً للدعوة من مُعارضِها ليس إِلَّا. يَدُلُّكَ على ذلك أَنَّهُ لم يُقاتل إِلَّا من قاتله أو اعتدى على المسلمين. فهل مثل ذلك يُعد خطأ في شِرْعَةِ العدل والإنصاف؟ وهل يُقال بعد ذلك: إن الدين قام بالسيف؟ لهذا أُحِببت أن أذكر عند كل غزوة السبب الذي دعا المسلمين إليها^(٨).

(٨) قد أوضحنا هذا المقام بالبراهين القاطعة في الفصل الثاني من الباب الثاني. من كتابنا ((الإسلام روح المدنية)) فليرجع إليه من شاء.

نَسَبُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

هو سيدنا أبو القاسم: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كِلَاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيِّ بن غالب بن فِهْر بن مَالِك بن النَّضْر بن كِنَانَة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إِيَّاس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدَّ بن عَدْنَان.

هذا هو النسب الذي اتفق على صحته علماء الحديث والتاريخ. أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق. وغاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام-.

فهذا نسبه من جهة أبيه. وأما نسبه من جهة أمه، فهو -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- محمد بن آمنَة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرَة بن كِلَاب، فتجتمع معه -عليه السلام- في جَدِّه كِلَاب.

أدوار حياة الرسول

وأدوار حياته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثلاثة: من ولادته إلى النبوة، ومن النبوة إلى الهجرة، ومن الهجرة إلى وفاته.

الدور الأول من حياته

[ويبتدئ من حمّله إلى النبوة]

أبوه وأمه:

كان عبد الله بن المطلب -أبو الرسول الأعظم- من أحبّ ولد أبيه إليه، ولما بلغ عمره ثماني عشرة سنة رَوَّجَه أَمَنَةُ بنت وَهَب، فحملت منه برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وفاة أبيه:

ثم لم يلبث أبوه أن تُوفِّي، وهي حاملٌ به، أو بعد وَضْعِهِ بشهرين.

ولادته -عليه السلام-:

وكانت ولادته يوم الاثنين، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عام الفيل^(٩)، حين طلوع الفجر، وهو وقت البركة، كما قال -عليه السلام-: «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، وكانت ولادته في زمن الملك العادل (كِسْرَى أَنْو شروان ملك فارس).

ولم يترك له والده من المال إلا خمسة جِمال، وبعض نِعاَج وجارية، ويُروى أقل من ذلك، وأَرْضَعَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّة. وذلك أنه كان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد. فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يَطْلُبْنَ أَطْفَالاً يُرْضِعْنَهُمْ، فكان الرضيع المحمود -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من نصيب حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، فَدَرَّتْ الْبَرَكَاتُ عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الَّذِينَ أَرْضَعُوهُ مَدَّةَ وَجُودِهِ بَيْنَهُمْ، وكانت تزيد على أربع سنوات.

(٩) أي: في السنة التي جاء فيها الفيل إلى مكة. وذلك أَنَّ مَلَكًا من ملوك الحبشة جَهَّزَ جَيْشًا على مكة لهدم الكعبة. وكان في ذلك الجيش فيل عظيم: لكنَّ الله رمى عدوانهم في نحرهم، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرًا أبابيل -أي فرقا وجماعات-، ترميهم بحجارة من سجيل -أي طين متحجر- فجعلهم كعصف مأكول -أي كورق زرع أكلته الدَّوَابُّ أو الدود -أي: أهلهم وأبادهم-. ويوافق مولده -عليه السلام- (٣٠ من نيسان ((إبريل)) سنة ١٧٥ من ميلاد المسيح -عليه السلام-.

وفاة أمه - عليه السلام:-

وفي السنة السادسة من عمره أخرجته أمه إلى أخواله بالمدينة. فتُوفيت بالأبواء^(١٠) فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورَقَّ له رِقَّةً لم تُعْهَد له في ولده؛ لِمَا كان يظهر عليه مما يدل على أنَّ له شأنًا عظيمًا في المستقبل.

وفاة جده عبد المطلب:

وبعد سنتين من كفالته توفي جده. فكفله عمه أبو طالب. وكان شهيمًا كريمًا، غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله.

سفره إلى الشام لأول مرة:

وفي السنة التاسعة، سافر إلى الشام السَّفْرة الأولى مع عمه أبي طالب: وقد اجتمع رجال القافلة وهم بقرب بُصْرَى، بالراهب مُجَيَّرِي. فأخبرهم عن ظهور نبي من العرب في هذا الزمان، كما عَرَفَ ذلك في كتبهم المقدسة: فقالوا إنه لم يظهر إلى الآن.

حرب الفُجَّار:

وفي سنة عشرين حضر حرب الفجار. (وهي حرب كانت بين قريش وحلفائها وقيس وحلفائها، في موضع بين مكة والطائف يُسمى «نخلة»). وكادت الدائرة تدور على قيس، لولا أن حصل الصُّلح بينهما.

سفره إلى الشام للمرة الثانية:

وفي سنة خمس وعشرين سافر إلى الشام السَّفْرة الثانية بتجارة لخديجة بنت خويلد (وكانت تستأجر الرجال في مالها) وقد اختارته لهذا العمل؛ لِمَا سمعت عنه من الأمانة والصدق وغيرهما من الصفات الجميلة، التي جُبِلَ عليها منذ حدثته، حتى سماه قومه (الأمين). وسافر معه مَيَسَّرَةٌ غلامها. فباعا وابتاعا، وربحا وربحًا جسيمًا.

(١٠) الأبواء: قرية بين مكة والمدينة، وهي إلى المدينة أقرب.

زواجه بخديجة:

وفيها تزوج بخديجة بعد رجوعه من الشام بشهرين. (وهي التي خطبته لنفسها) ولها من العمر إذ ذاك أربعون سنة.

بناء الكعبة:

وفي سنة خمس وثلاثين جاء سيلٌ جارفٌ، فصدع جدران الكعبة، بعد توهينٍ من حريق كان قد أصابها. فعزمت قريش على هدمها وبنائها، وقد شهد الرسول بناءها وعمل فيها وقد جعلوا ما ينفق عليها من الأموال طاهرًا، ليس فيه ربًا ولا مهرٌ بغيٌّ. وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان الرسول وعمه العباس فيمن يحمل وكان الرسول مؤثّرًا، فقال له العباس: «اجعل إزارك على عاتقك فوق عنقك»، ففعل -عليه السلام- ذلك، فبدت سواته فسقط على الأرض، فضمه عمه إليه، وقال: «ما الذي أصابك؟» قال: «سمعت صوتًا شديدًا: أنْ شُدَّ عليك إزارك».

وقد رَضِيَتْ قريش بحُكمه عند اختلافهم فيمن يضع الحجر الأسود، حتى كادوا يقتتلون لذلك ففَصَلَ هذا المشكلَ العظيم الرسول الأعظم، فإنه بسط رداءه، وقال: «لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب». ثم وضع الحجر فيه، وأمرهم برفعه، حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه الرسول ووضع فيه.

نبوته -عليه السلام-:

ولما كان له أربعون من عمره أكرمه الله بالنبوة والرسالة.

شدرة من معيشة قبل النبوة

لم يُقْم على تربيته مهذب، ولم يُعَنْ^(١١) به مؤدب، بين أتراب من نبت الجاهلية^(١٢)، وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة^(١٣) الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً، حتى عُرف بين أهل مكة، وهو في ريعان شبابه^(١٤) بالأمين. أدب إلهي لم تَجِر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصاً مع فقر القوَّام. فاكتهل^(١٥) -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم- كاملاً، والناس ناقصون، ربيعاً، والناس منحطون، موحدًا، وهم وثنيون، سلماً^(١٦) وهم شاغبون^(١٧) صحيح الاعتقاد، وهم واهمون، مطبوعاً على الخير وهم جاهلون وعن سبيله عادلون^(١٨).

رُيِّ بين قوم قد اعتادوا الفجور والفسق وسفك الدماء، وغير ذلك من قبائح الأشياء. فكان (لا يميل إلى ما يميلون، ولا يعبد ما يعبدون أو لا يفعل ما يفعلون. فكان -عليه السلام- أحسنهم أخلاقاً؛ وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة: وقد حفظه الله منذ صغره من كل أعمال الجاهلية، التي جاء شرعه الشريف بضدها. وفي الجملة فقد حُلِقَ مفطوراً على محاسن الأفعال، مطبوعاً على جِيَاد الأعمال.

نشأ -عليه الصلاة والسلام- ولم يكن عنده ما يَسْتَعِين به على الاستغناء عن الكسب. لذلك لما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً، كان يَرعى الغنم، مع إخوته من الرِّضَاع في البادية. وكذلك لما رجع إلى مكة كان يربعاها لأهلها على قراريط^(١٩). على أنه لو أراد المال وكثرت، وإِدْخاره لكان له ذلك، خصوصاً بعد أن استأجرت خديجة واختارت أن يكون زوجها. (وكان

(١١) أي: لم يُعَنْ.

(١٢) أي: نابتة مماثلين له في سنه. والمراد بالبَّت الأبناء.

(١٣) الحفدة: الخدم والأعوان.

(١٤) أي: أول شبابه.

(١٥) أي: جاوز الثلاثين من عمره.

(١٦) أي: سلماً.

(١٧) مهبجون للشرور.

(١٨) ثقلت هذه الشدرة من أولها من رسالة التوحيد لشيخنا الأستاذ الإمام المرحوم «الشيخ محمد عبده» مفتي

الديار المصرية -رضي الله عنه-.

(١٩) واحدها قيراط، وهو نصف دائق، والدائق سُدُس الدرهم.

فيما يَحْتَنِيهِ^(٢٠) من ثمرة عمله غناء^(٢١) له، وعون^(٢٢) على بلوغه ما كان عليه أعظمُ قومه. لكنه لم تَرْقُهِ الدنيا^(٢٣)، ولم تُغْرِه زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها، بل كلما تقدمت به البسْ زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما^(٢٤) فيه حب الانفراط والانقطاع إلى الفكر والمراقبة^(٢٥) والتَّحَنُّث^(٢٦) بمناجاة الله تعالى، والتَّوَسُّلِ إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه^(٢٧)، وثابر على ذلك مدة من الزمن إلى أن أكرمه الله بالنبوة والرسالة.

(٢٠) أي: يكسبه.

(٢١) أي: فائدة.

(٢٢) أي: معونة.

(٢٣) أي لم نَعْجِبْه.

(٢٤) أي: زاد.

(٢٥) أي الخشية والخوف من الله.

(٢٦) أي: التعبد.

(٢٧) وهذه العبارة الموضوعية بين قوسين منقولة أيضاً عن رسالة التوحيد.

الدور الثاني من حياته

[ويبتدئ من النبوة إلى الهجرة]

في غار حراء^(٢٨):

لما أحب الرسول الانقطاع عن الناس، وتفرغ للتعبّد والمراقبة، كان أول ما فتح له من الأسائر والدلالات ما كان يراه من الرؤيا الصالحة الصادقة. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كما رأى. وقد اختار لغزله غار حراء، فكان يتعبّد فيه ليالي معلومة، فتارة عشراً وتارة أكثر. وكان يأخذ لذلك الزاد، ومتى فرغ منه رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

بدء الوحي:

ولما بلغ عمره -عليه السلام- أربعين سنة، «انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثّه إليه الإلهام الإلهي، وتجلّى عليه النور القدسي، وهبط له الوحي من المقام العليّ»^(٢٩)، واختاره الله لرسالته، وأنزل عليه الروح الأمين، وهو في (غار حراء)، ليعلمه كيف يهدي قومه والناس أجمعين، فصعد بما أمر وبلغ ما أنزل إليه من ربه.

وكتب الدعوة سرّاً. فكان أول من آمن من الرجال أبا بكر بن أبي قحافة^(٣٠)، ومن النساء زوجته خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب، ولم يسجد عليّ لصنم قط ولهذا يُقال: كَرَّمَ الله وجهه.

وقد أجاب الدعوة كثيرٌ من الأشراف والموالي، كعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وضمّهيب الرومي، وعمار بن ياسر العبّسي، وعبد الله بن مسعود وأبي ذرّ العفّاري^(٣١)، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمّ الرسول، وعثمان بن مظعون وغيرهم.

(٢٨) حراء: جبل بمكة فيه الغار الذي أعده الرسول لعبادة الله والاعتزال عن الناس في أول أمره.

(٢٩) عن رسالة التوحيد أيضاً.

(٣٠) اسم أبي قحافة عثمان.

(٣١) نسبة إلى قبيلة غفّار، بكسر الغين، والفاء مخففة.

هذا، ولم يكن مع الرسول سيف يضرب به أعناقهم، حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، دون أن يعبتوا بما عندهم من الثروة الوفرة، ثم يتبعوا هذا الرسول، ويتحملوا إهانة أهليهم وتعذيبهم إياهم، حتى إن الكثير منهم كان واسع الثروة أكثر منه -عليه السلام- كأبي بكرٍ وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقة، ولم يرجعوا إلى دين آبائهم، ولو اتبعوا ساداتهم لكانوا في هذه الدنيا أنهاراً بالاً وأنعم عيشة، ولكن الدين الحق ما حل في قلب، ولا سطع على عقل، إلا فضله على كل ما سواه.

فترة الوحي:

وقد انقطع الوحي مُدَّة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أنها أربعون يوماً. والحكمة من فترة الوحي هذه المدة، أن يشتد شوقه -عليه السلام- إليه، فيكون استعداداه لتلقيه أكثر، وقد كان الأمر كذلك، فقد زاد هُيأته -عليه السلام- بالوحي واشتياقه إليه، وزاد قلقه خوفاً من قطيعة الله له، بعد أن أراه نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة لهداية خلقه. ثم تتابع نزول الوحي عليه، -صلى الله عليه وسلّم-.

وكان أول ما علمه (جبريل) -ملك الوحي- من الآيات قوله تعالى: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }.

الدعوة سرّاً ثم جهراً:

وكانت الدعوة سرّاً، حذراً من مفاجأة الناس بأمر غريب. ثم أمره الله بالجهر بقوله: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }. فلبّى داعي الله، وخاض غمرات الدعوة^(٣٢)، وسلك مفاوز^(٣٣) النصيحة، واقتحم ميدان الإرشاد، ودعا الناس إلى الله تعالى وعبادته وحده، وأن يتركوا ما كان عليه آبائهم من الشرك والكفر وعبادة الأوثان ودعاء الأصنام، وأمرهم بترك المنكرات وهجر المحرمات، «فمنهم من هدى الله، ومنهم من حَقَّتْ عليه الضلالة».

(٣٢) خاض: اقتحم، و«الغمرات» الشدائد.

(٣٣) المفاوز المهالك، وهي جمع مفازة.

وقد لاقى من أجل ذلك أذى عظيمًا من قومه، كالرمي بالحجارة، ورمي القدر على بابه، وعزمهم على خنقه وقتله، إلى غير ذلك مما يحمر له وجه الإنسانية خجلًا. وكان يشتد أذاهم له إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت. وقد استمروا على أذاه، واستمر على الصبر، إلى أن صرع الحق الباطل «إن الباطل كان زهوقًا».

السنة الخامسة من النبوة فما بعدها

[هجرة أصحابه إلى الحبشة للمرة الأولى]

وفي السنة الخامسة من النبوة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة. وذلك أن الأذى لم يكن قاصراً على الرسول، بل تناول أصحابه؛ لاتباعهم إيّاه، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه، أو قبيلة تتردّد عنه كيد أعدائه. فهاجر ناسٌ منهم فراراً بدينهم. وهي أول هجرة من مكة وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة. ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر.

وفي ذلك الوقت أسلم حمزة عم الرسول، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة.

دخول الشَّعب:

وفي السنة السابعة، كان دخول النبي الشَّعب^(٣٤) مع عمه أبي طالب وبني هاشم والمطلب، مسلمهم وكافرهم. ما عدا أبا لهب. وذلك عندما همت قريش بقتله، حين رأوا أن أمره في ازدياد، وأن الإسلام قد فشا وانتشر في القبائل، فلما علمت قريش بدخولهم الشَّعب أجمعوا على مُنابذتهم؛ وأن لا يقبلوا لهم صلحاً أبداً، وقطعوا عنهم الأسواق. ومنعواهم الرزق، إلا أن يُسَلِّموا محمداً للقتال. وكتبوا بذلك صحيفة تتضمن التَّضييق عليهم في كل شيء. وعلَّقوها في جوف الكعبة.

هجرة الحبشة الثانية:

وبعد دخول الرسول شعب أبي طالب أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانٍ عشرة امرأة. وتوجه إليهم الذين أسلموا من أهل اليمن، وهم الأشعريون أبو موسى وقومه.

(٣٤) الشَّعب -بكسر الشين-: موضع يعرف بشعب أبي طالب. وذكر صاحب معجم البلدان أنه يعرف بشعب أبي يوسف، قال: كان لعبد المطلب، فقسم بين بنيهِ حين ضعف بصره. وكان النبي -صلى الله عليه وسلّم- قد أخذ حظاً أبيه. وكان منزل بني هاشم ومساكنهم. والشَّعب -بكسر الشين- هو في الأصل: الطريق في الجبل أو ما انفرج بين جبلين، والجمع شُعابٌ.

فلما رأت قريش استقرار المهاجرين في الحبشة، أرسلوا إلى ملكها (النجاشي) عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، بهدايا وتُحَفٍ من بلادهم. والتمسوا منه أن يُرَدَّ من هاجر من المسلمين، فأبى النجاشي ذلك، وردَّهما خائبين.

ثم أسلم «النجاشي» ومن معه من القسيسين والرهبان سنة سبع من الهجرة لما سمعوا سورة مريم، فأنزل الله في حقهم: { وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } . ثم مات النجاشي مسلماً، وصلى عليه رسول الله لما أعلمه جبريل بوفاته. وهذه هي أصل صلاة الجنازة على الغائب، كما في صحيح البخاري.

نقض الصحيفة:

وفي السنة العاشرة قام رجالٌ من قريش بنقض الصحيفة، فخرج الرسول ومن معه بعد أن مكثوا في الشَّعب قريباً من ثلاث سنوات، في شدة الجهد والجوع، لا يصل إليهم شيءٌ إلا سراً، حتى إنهم أكلوا أوراق الشجر. وكان الرسول قد أخبر أن الأرضة^(٣٥) أكلت ما في الصحيفة من الكتابة إلا أسماء الله. فلما أنزلوها ليمزقوها وجدوها كما أخبر -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. ومع ذلك فلم يزدادوا إلا بغياً وعتواً.

وفاة خديجة وأبي طالب:

وفيها توفيت خديجة زوج الرسول. وبعد وفاتها بنحو شهرين توفي عمه أبو طالب، وله من العمر سبع وثمانون سنة. وكان يدُرُّ عنه الأعداء. ويدفع عنه الألداء، ويمنعه ممن يريد أذاه. ومع أنه كان يصدق الرسول فيما جاء به، ويعتقد صدقه بكل ما أخبر، لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته، خوفاً من تعيير قومه إياه.

ولما حضرته الوفاة جمع وجوه قريش وأشرافهم، وأوصاهم بالنبي خيراً، وأن يكونوا من أنصاره وأعوانه. ومن جملة ما قاله: وقد جاءكم بأمرٍ قَبْلَهُ الجنان، وأنكره اللسان، مخافة

(٣٥) الأرضة: دُوْبَةٌ تَأْكُلُ الخشب والورق. يقال أَرْضَتِ الخشبة -بالمجهول- تُؤْرَضُ أَرْضًا -بسكون الراء-، فهي مأروضة. إذا أكلتها الأرضة.

وبعد وفاته نالت قريش من الرسول ما لم تقدر على نيله منه في حياة أبي طالب. واشتد أذاهم له وتعصبهم عليه.

هجرته إلى الطائف:

فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف -فإن فيه بني ثقيف- ليعينوه على قومه ويساعدوه، حتى يُتِمَّ أمر ربه. وكان معه زيد بن حارثة. فأقام بالطائف شهراً، يدعوهم إلى الله تعالى، فلم يُجيبوا. بل ردوا عليه رداً قبيحاً وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهُ. ورموا عراقبه بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان مولاه زيدٌ يقيه بنفسه، حتى لقد أُصيب في رأسه بجراحات، فلما لم يتلَّ منهم خيراً رجع إلى مكة، ودخلها في جوار المطعم بن عديٍّ.

الإسراء والمعراج:

وفي السنة الحادية عشرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج. أما الإسراء فهو توجُّههُ ليلاً من المسجد الحرام، في مكة إلى المسجد الأقصى^(٣٧)، في بيت المقدس، ورجوعه من ليلته. وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي وفيه فُرضت الصلوات الخمس.

والإسراء كان بروحه وجسده. وخالف في ذلك مَنْ لا يُعبأ بقوله. وأما المعراج فقد اختلفوا فيه، أكان بالجسد والروح معاً، أم بالروح فقط؟ -أي: كان رؤيا مناميّة صادقة- فالجمهور على أنه كان بهما معاً، وذهب بعضهم إلى أنه كان بالروح فقط، ومنهم عائشة والحسن ومعاوية وغيرهم.

(٣٦) الشَّئَانُ البُغْض، أي: أنكرنا رسالته بألسنتنا مخافةً أن نُبَغِّضَ إلى قومنا ونُعَيَّرَ بذلك. وقد اختلف العلماء في نجاة أبي طالب، والمحققون على أنه ناج.

(٣٧) المسجد الحرام: هو مسجد مكة. و«المسجد الأقصى»: هو مسجد القدس.

بدء انتشار الإسلام:

لما رأى الرسول أن قريشاً لم تُمَكِّنْهُ من تأدية الرسالة، كان يخرج في مواسم العرب، ويعرض نفسه على القبائل، فكان منهم من يَرُدُّ رَدًّا قبيحًا، ومنهم من يرد رَدًّا حسنًا. ومن أقبحهم رَدًّا بنو حنيفة، رَهْطُ مُسَيْلَمَةَ الكذاب.

ومن عرض نفسه عليهم نفرٌ من عرب «يُثْرِبَ»^(٣٨) من الأوس. فلَمَّا كَلَّمَهُم النبي عَرَفُوا وصفه الذي كانت تصفه به اليهود، فقالوا فيما بينهم: «والله إنه النبي الذي تواعدنا به اليهود، فلا تسبقنا إليه». فأمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام في المدينة، منهم أسعد بن زُرَّازة. ثم انصرفوا بعد أن وعده بالمقابلة في الموسم المقبل:

فلما كان العام القابل، لقيه اثنا عشر رجلًا، منهم عشرة من الأوس، واثنان من الخزرج، وفيهم خمسة من السبَّةِ الأولين، فأمنوا عند العقبة، وبايعوه على ما أحب وهي العقبة الأولى. وكانت المبايعه على ما يأتي، وهي أن لا تُشْرِكَ بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفترية بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وأن نقول الحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. فقال لهم -عليه السلام-: «فإن وقَّيْتُمْ فلکم الجنة». ثم انصرفوا إلى المدينة. فأظهر الله فيها الإسلام، ولم تَبْقَ دَارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذِكرُ الرسول.

ولما كان العام الآتي «سنة ثلاث عشرة للنبوة» وفد على الرسول سبعون رجلًا وامرأتان، فأسلموا وبايعوه عند العقبة، وهي العقبة الثانية.

ثم تَقَبَّ عليهم الرسول اثني عشر نقيبًا منهم، لكل عشرة نقيب، وقال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وإني كفيل على قومي». ثم انصرفوا إلى المدينة. فانتشر الإسلام فيها بين أهلها -رضي الله عنهم-.

(٣٨) يثرب: هي المدينة المنورة.

الدور الثالث من حياته

[ويبتدى من الهجرة إلى وفاته]

الهجرة إلى المدينة:

ثم إن الرسول أمر جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، لازدياد الأذى عليهم. فصاروا يَتَسَلَّلُونَ^(٣٩) خوفًا من أن تمنعهم قريش ولم يَبْقَ في مكة إلا القليل. أما قريش فلما رأوا ذلك أجمعوا على قتل الرسول، وجمعوا من كل قبيلة شائبًا، حتى يتفرق دمه في القبائل. فأَعْلَمَ الله نَبِيَّه ما دَبَّرَه الأعداء من الكيد. وأمره باللحاق بدار هجرته التي ينتشر فيها الإسلام. فتواعد هو وأبو بكر على السفر. وأعطيا دليلاً ماهراً راحلتين^(٤٠). وأمره أن يجيء بهما بعد ثلاث ليال إلى غار ثور^(٤١). وكانت ليلة خروج الرسول من مكة هي الليلة التي أعدها المشركون لاغتيال الرسول. فالتَفَّ الشُّبَّان حول داره فخرج الرسول، وقد ألقى الله النوم عليهم، فلم يَرَهُ منهم أحدٌ. وخلف مكانه ابن عمه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ليؤدي ودائع للناس كانت عنده. ثم سار حتى اجتمع بأبي بكر. فأُسرع حتى وصلا إلى غار ثور، وكانت سَنَّهُ إذ ذاك - عليه الصلاة والسلام - ثلاثاً وخمسين سنة.

فلما علم المشركون بفساد مكرهم هاجوا لذلك، فأُسرعوا الطُّلَّاب من كُلِّ جهة، وجعلوا لمن يأتي به أو يدل عليه مئة ناقة. وقد وصلوا في طلبهم إلى الغار، فأَعْمى الله أبصارهم عنها.

ومما يُذكر أن الرسول - عليه السلام - حينما كان ذاهباً مع أبي بكر إلى الغار - كان غير لابس شيئاً في رجله، فحمله أبو بكر على كاهله، حتى انتهى به إلى الغار، فلما أراد النبي أن يدخل قال له أبو بكر: «والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخل حتى أدخله». فدخل أبو بكر، فجعل يلمس الغار بيده في ظلمة الليل، مخافة أن يكون فيه شيء يؤذي الرسول - صَلَّى الله عليه وسلَّم - فلما لم ير فيه شيئاً أَوْعَزَ إليه بالدخول. ولما أراد الرسول النوم جعل أبو بكر - رضي الله عنه - رأسه على ركبته وبينما كان - عليه الصلاة والسلام - نائماً رأى

(٣٩) يتسللون: أي يخرجون واحداً بعد واحد.

(٤٠) واسم هذا الدليل: بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ.

(٤١) ثور: جبل بمكة فيه الغار. وهو الغار المذكور في القرآن الكريم.

أبو بكر ثَقَبًا في الأرض، فوضع عقبه عليه، خشية أن يكون فيه ما يؤذي الرسول، فلدغته عقرب كانت فيه، فلم يتحرك، فلما اشتد به الألم تساقطت دموعه على وجه الرسول، فاستيقظ، فقال له: ما يؤذيكَ؟ فقال: لدغت. فتَقَلَّ عليه، فذهب ما يجده من الألم بإذن الله.

وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل بالراحتين. فساروا قاصدين إلى المدينة. فوصلوا إلى قُبَاء^(٤٢) يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. وكان التاريخ من ذلك، ثم رُدَّ إلى الحرم. وهو أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة، وهو مُضَيَّقٌ عليه في مكة ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه.

وبهذه الهجرة تمت للرسول سُنَّةُ إخوانه من الأنبياء قبله فما من نبيٍّ إلا تَبَّتْ في بلاد نشأته، ثم هاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم كلمة الله.

وقد بنى رسول الله وهو في قُبَاء مسجدها الذي وصفه الله بأنه مسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم. وصلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار. ثم خرج الرسول من قُبَاء بعد أن أقام فيها اثنتين وعشرين ليلة. وفي الطريق أدركته الجمعة، فصلاها بمن معه من المسلمين وكانوا مئة، وهي أول جمعة صلاها. ثم ركب الرسول بعد الجمعة وتوجه إلى المدينة. والأنصار محيطون به. وهم مُتَقَلِّدُونَ سِيوفَهُمْ. وهنا حَدَّثَ عن سُورِ أهل المدينة ولا حرج. وقد خرج لملاقاته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيمن خرج النساء والصبيان والولائد يُنْشِدْنَ:

أَشْرَقَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا	مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا	مَا دَعَا اللهُ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمُبْعُوثُ فِينَا	جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

ولما استقر -عليه السلام- في المدينة أرسل في طلب مَنْ تَخَلَّفَ من أهله. وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر في عيال أبيه. ومنع مُشْرِكُو مكة بعضًا من المسلمين المستضعفين من الهجرة، وحبسوهم وعذبوهم.

(٤٢) قُبَاء، بالمذ والقصر: قرية على ميلين من المدينة المنورة، على يسار القاصد منها إلى مكة. ويجوز في قباء الصرف وعدمه. وهناك مسجد التقوى، المراد بقوله تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى}. وفيها أيضًا كان مسجد الضرار، المراد بقوله عز وجل: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا}. وقد أمر النبي بهدمه.

السَّنة الأولى - للهجرة

بناء مسجده الشريف:

فيها بنى مسجده الشريف، وقد عمل فيه الرسول بنفسه ترغيباً للمسلمين في العمل.

مشروعية الأذان:

وفيها شرع الأذان ليجتمع الناس متى حان^(٤٣) وقت الصلاة.

عداوة اليهود:

ولما رأت اليهود أنَّ قَدَمَ الإسلام قد رسخت في المدينة، هاجتهم^(٤٤) العداوة والحسد، فتحزبوا على المسلمين، وقد كانوا قَبْلُ يستفتحون^(٤٥) على المشركين بنبي يُبعث قد قُرِبَ زمانه وذلك إذا نشبت^(٤٦) الحرب بين الفريقين. ولكن قد أَعَمَّتْهم الرِّئاسة، فاستعظموا الأمر. وكان يُساعدهم على عملهم هذا جماعةٌ منافقون من عرب المدينة، يرأسهم عبد الله بن أُبَيٍّ سَلُولُ الْخَزَرَجِيِّ. ثم عقد الرسول مع اليهود عقداً على أن يتركوا آذاه، ويترك محاربتهم.

مشروعية القتال:

علمت أن الرسول لم يكن معه سيف يضرب به أعناق الناس، لإكراههم على الدين، بل كان الأمر قاصراً على الدعوة إليه والتبشير به فعارضه من عارضه وآذاه من آذاه بغياً وحسداً وطمعاً في الرئاسة. وقد صبر الرسول ومن آمنوا معه على ذلك الأذى والضييم، إلى أن فَرَّجَ الله عنهم بالهجرة وشَدَّ أَرْزَمَهُمْ، وأباح لهم أن يأخذوا بثأرهم من أعدائهم قريش وكان الأمر قاصراً عليهم. ولكن لما انحاز إلى قريش غيرهم من العرب، وجاهروا المسلمين بالعداوة، وساعدوا قريشاً قاتلهم المسلمون. وكذا لما جاهرت اليهود بالعدوان، وأرادوا حرب المسلمين،

(٤٣) حان: قرب.

(٤٤) هاجتهم: أثارتهم وهيجتهم.

(٤٥) يستفتحون: يستنصرون.

(٤٦) نَشَبَتْ: عُلقت.

قاتلهم المسلمون.

ثم صار الأمر بالجهاد عامًا لكل من أراد المسلمين بسوء بهذا تعلم صحة ما أثبتناه في أول هذه الرسالة، من أن الدين لم يُقَمَّ بالسيف، وإنما قام بالدعوة، والسيف إنما شُرع لحمايتها ودفع المعارضين لها.

بدء القتال:

ولما أُذن للرسول بقتال أعدائه، كان أول ما بدأهم به أنه أرسل سرِّيَّةً^(٤٧) برئاسة عمه (حمزة)، لاعتراض عير^(٤٨) لهم قادمة من الشام، ولم يكن حربًا. ثم سرية برئاسة (عُبَيْدَةَ بن الحارث بن عبد المطلب)، لاعتراض غيرهم فكان الرمي بالتيال. إلى أن هرب المشركون.

(٤٧) المراد بالسرِّيَّة كل غزوة لم يكن فيها رسول الله. والمراد بالغزوة ما كان فيها الرسول.

(٤٨) العير: الجمال التي تحمل الطعام وغيره. وكان معها ثلاث مئة رجل يرأسهم أبو جهل وقصد الرسول من أخذ العير أن تضعف قوة قريش المالية، فلا يستطيعوا الثبات في المحاربة؛ لأنهم كانوا بلا شك يقصدون قتاله انتصارًا لآلهم.

السنة الثانية - للهجرة

غزوة ودان^(٤٩):

في هذه السنة غزوة ودان: خرج الرسول في ستين رجلاً مُعْتَرِضًا عَيْرَ قريش، ولم يكن حرباً؛ لأن العير كانت قد سبقته.

غزوة بواط^(٥٠):

وفيها غزوة بواط: خرج إليها في مئتين من المهاجرين، يريد العير. ولم يلق كيداً.

غزوة العشيرة^(٥١):

وفيها غزوة العشيرة: خرج إليها الرسول بمئة وخمسين من المهاجرين، لاعتراض غير عظيمة لقريش، يرأسها أبو سفيان، وكانت قاصدة إلى الشام. ولم يحصل حرب لقوات العير.

غزوة بدر الأولى^(٥٢):

وفيها غزوة بدر الأولى وتسمى (غزوة سفوان^(٥٣)) أيضاً: خرج إليها الرسول في طلب (كرز بن جابر الفهري) لأنه أغار على سرح^(٥٤) المدينة وهرب ولم يكن قتال، لفرار كرز.

أول غنيمة في الإسلام:

وفيها: أرسل سرية، برئاسة (عبد الله بن جحش)، لاعتراض عير قريش القادمة من الشام، فأصابوها ورجعوا وهي أول غنيمة في الإسلام.

(٤٩) ودان، بفتح الواو وتشديد الدال: قرية بين مكة والمدينة.

(٥٠) بواط: بضم الباء وتخفيف الواو، جبل من جبال جهينة بناحية رضوى.

(٥١) المشيرة، بضم العين، ويقال لها ذو العشيرة أيضاً: موضع أو حصن بين ينبع وذي المروة، يفضل تمره على جميع تمر الحجاز.

(٥٢) بدر: اسم ما بين مكة والمدينة، بينه وبين ساحل البحر ليلة.

(٥٣) سفوان، بفتح السين والفاء: واد من ناحية بدر.

(٥٤) السرح: المال الراعي كالغنم ونحوها.

تحول القبلة إلى الكعبة

وفيها تحولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، بعد أن مكث المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا.

صوم رمضان:

وفي شهر شعبان من هذه السنة فُرض صوم رمضان. وكان -عليه الصلاة والسلام- قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. والحكمة من الصوم أشهر من أن تذكر، ولو لم يكن من فوائده سوى أن الصائم يذوق من قوارص الجوع والعطش ما تلين به نفسه ويتهذب به خُلُقُه، فيتذكر حالة الفقراء والمساكين، فيسهل عليه بذل الصدقات لهم رحمة لهم، لكفى.

زكاة الفطر:

وقد أوجب الشارع الحكيم، عقب الصوم، زكاة الفطر وجعل قبول الصوم معلقًا على بذلها لمستحقيها. والفائدة من الصوم والصدقة، في الحقيقة، راجعة إلينا، ومنفعة ذلك عائدة علينا؛ لأن الله ليس محتاجًا إلى عبادتنا، وإنما أمرنا بذلك لما فيه من الخير العميم. والله غني عن العالمين.

وأما من يقول: إن الله أمر الناس لإعنائهم وإرهاقهم والتضييق عليهم، فهو جاهلٌ غرُّ بعيدٌ عن حجة الصواب؛ إذ ما من عبادة إلا وفيها حكمة باهرة، وموعظة ظاهرة، يعلمها من يعلمها ويجهلها من يجهلها.

زكاة المال وحكمتها:

وفي السنة الثانية أيضًا: فرض الله على الأغنياء من الأمة الزكاة، التي هي النظام الوحيد، والسبب الأقوى لدفع غائلة الفقر والحاجة عن الأمة، إن هي صُرفت بحقها على مستحقيها فيأكل الفقراء والمساكين والعجزة واليتامى، والذين ليس لهم من يقوم بحاجاتهم، ولا ما يقيم أودهم، من مال إخوانهم الأغنياء، بلا ضرر ولا ضرار.

والزكاة لم يوجبها الشارع الحكيم عبثاً وإنما فرضها لمنافعها الجمة، وفوائدها الكثيرة، التي منها تهذيب النفوس، حتى تتجرد عن رذيلة الشح ودناءة البخل وتتحلّى بأوصاف الجود، وتزني عن نعوت السخاء والكرم، هذا عدا ما قدمناه من رفع الفقراء من وهدة العدم، وتخليصهم من مخالب الفقر. وكل من نظر نظرة منصف بعيدٍ عن التعصّب، يحكم أن نظام الزكاة - مع كونه غير مُضِرٍّ بالأغنياء - سببٌ لتخفيف وطأة الفقر، الذي أحوج كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام الإنسانية، ويؤسسوا مبادئ وأصولاً لتقويض أركان العمران، ومباني الأمن والراحة، رغبة في المساواة بين الغني والفقير، كما يفعل ذلك فوضيو الاشتراكيين.

أما ما أوجبه الشريعة الغراء، فهو في غاية العدل ونهاية الإنصاف؛ لأنها لم تجبر الغني الذي أضاع جزءاً وافراً من حياته أن يُشاطر الفقير ماله، بل أمرته بأن يؤدي في السنة جزءاً مخصوصاً من ماله عن طيب نفس منه. ولكن كثيراً ممن يسمون أنفسهم مسلمين غافلون عن فائدة هذا النظام، فأهملوا هذه الفريضة العظيمة، إما عن عدم اكتراث، أو عن بُخل، أو بحيل شيطانية، يظن فاعلها أنها تسقط الزكاة عنه. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

غزوة بدر الكبرى^(٥٥):

وفي هذه السنة: وقعت غزوة بدر الكبرى (وهي الثانية):

وذلك أنَّ الرسول خرج، ومعه ثلاث مئة رجل وثلاثة عشر رجلاً، (مئتان وأربعون من الأنصار، والباقيون من المهاجرين، ولم تكن الأنصار تخرج معه قبل هذه المرة) ليعترض عير قريش العظيمة، وهي راجعة من الشام (وهي التي قدمنا في غزوة العشيرة أنها فاتته ولم يلقها).

فلما علمت قريش بذلك جمعت الجموع، وكانت عدتهم ألف رجل. فعلم الرسول بهم فقصده إليهم بمن معه عي قلتهم. فالتقى الفريقان ببدر. وكان يوماً من أشد الأيام هولاً. وأيد الله المسلمين بالملائكة تقاتل معهم^(٥٦). فلم تكن إلا ساعة، حتى دارت الدائرة على قريش، فانهزموا تاركين في ساحة الحرب سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً. وغنم المسلمون غنائم عظيمة.

(٥٥) بدر: هي اسم ماء، أو اسم بئر. وكانت الواقعة قريباً منها.

(٥٦) ويروى عن ابن عباس أن الملائكة لم تكن تقاتل إلا يوم بدر، وفيما سواه كانت عددًا ومددًا.

وكان هذا اليوم هو يوم الفرقان^(٥٧)؛ الذي أعز الله به الإسلام. ومن قُتل في هذه المعركة من المشركين حنظلة بن أبي سفيان، وأبو جهل بن هشام وقتل من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أو أربعة عشر رجلاً.

ثم رجعوا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذه النصر العظيمة. وقد امتن الله بهذا النصر على المسلمين بقوله: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}.

أما الأسرى فافتدتهم قريش، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم. ومن لم يكن معه مالٌ للفداء وهو يُحسن القراءة والكتابة، أعطوه عشرة من صبيان المدينة ليعلمهم، وكان فداءه.

غزوة قَرْقَرَةَ الْكَدَرِ^(٥٨):

وفي هذه السَّنة: كانت غزوة قرقرة الكدر. خرج الرسول يريد بني سليم. ولم يكن حربٌ؛ لأنه لم يلق أحداً. وكانت غيَّبتة خمس عشرة ليلة.

غزوة قَيْنَقَاع:

وفيها غزوة: قينقاع: وهم قومٌ من يهود المدينة. نقضوا العهد، وجأهروا بالعداوة، فحذر الرسول رؤسائهم؛ فأغلظوا له في الكلام فحاصروهم الرسول فلما رأوا عجزهم سألوه أن يخلي سبيلهم، على أن له الأموال ولهم الذرية والنساء. فقبل منهم وطردهم من المدينة، فلحقوا بأذرعَات. وأخذ المسلمون من حصنهم سلاحًا وآلة كثيرة.

(٥٧) الفرقان: كل ما فرق بين الحق والباطل، لهذا سُمي القرآن الكريم فرقانًا.

(٥٨) قرقرة الكدر: موضع قرب المدينة في ثمانية يرد منها، أو هي ماء لبني سليم في ذلك الموضع والكدر: بفتح الكاف وسكون الدال.

غزوة السَّوِيقِ (٥٩):

وفيها غزوة السويق: خرج يريد أبا سفيان، لخروجه لغزو المسلمين. وكان مع النبي مئتا راكب، ومع أبي سفيان مثلها ولم يكن قتالاً، هرب أبي سفيان ومن معه. وكان مع المشركين سويقاً فألقوه وهم هاربون، تخفيفاً لأتقاهم فغنمه المسلمون.

صلاة العيد:

وفيها: سَنَّ اللهُ صلاةَ العيد، التي لا تُخفى حِكْمَتُها على عاقل. فكان يَجْمَعُهُم الرسول في يوم عيد الفطر والأضحى، ويُصلي بهم ركعتين، ثم يخطب فيهم مُذَكِّراً واعظاً، حاضّاً على جمع الكلمة وعدم التفرق، وأن يكونوا كالجسد الواحد، لا فرق بين العربي والعجمي والمولى والسيد، ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً على أتم الوثام والاتفاق. ثم يخرجون لأداء الصدقات.

وصدقة عيد الفطر زكاته، وصدقة عيد الأضحى أضحيته.

زواج علي بفاطمة:

وفي هذه السنة: تزوج عليٌّ بفاطمة -عليهما السلام-، وكان عمره إحدى وعشرين سنة، وعمرها خمس عشرة سنة. وكان منها عقب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

دخول النبي بعائشة:

وفيها: دخل النبي بعائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما-.

(٥٩) السويق: بفتح السين: هو الناعم من دقيق الجنطة والشَّعِير.

السنة الثالثة للهجرة

غزوة غطفان:

فيها: غزوة غطفان: خرج الرسول إليها يريد جمعاً من بني ثعلبة وبني محارب (من بني غطفان) أرادوا الإغارة على المدينة، يرأسهم دُعْثُورُ بن الحارث المحاربيُّ، ومعه أربع مئة وخمسون فارساً. فلما علموا بخروج الرسول، هربوا متفرقين في الجبال.

وحدث في هذه الغزوة أن الرسول نزع ثوبه ليُجفِّفه من بللٍ أصابه، واتَّكأ تحت شجرة، فجاءه دعثور يُريد قتله غيلةً، فلما همَّ بذلك قال: «من يمنعك مني يا محمد؟» فقال الرسول: «الله تعالى!»، فأصاب الرجلَ هيبةً وخوفً، فسقط السيف من يده، فتناوله الرسول، وقال: «من يمنعك مني؟» فقال دعثور: (لا أحداً!)، فعفا عنه الرسول فأسلم، ودعا أصحابه إلى الإسلام.

ولا عجب من إسلامه وإسلام قومه؛ فإن هذه هي نتيجة الحسنى والمعاملة اللّينة.

غزوة بجران^(٦٠):

فيها: غزوة بجران: سار الرسول إليها ومعه ثلاث مئة من أصحابه، يُريد بني سليم لما بلغه أنهم يريدون الإغارة على المدينة. فوجدهم قد تفرقوا. ولم يلق حرباً.

غزوة أُحُد^(٦١):

وفي هذه السّنة: كانت غزوة أحد: فقد سارت قريش لحرب المسلمين أخذاً بثأر من قُتل من أشرافهم يوم بدرٍ وكان عددهم مع من حالفهم من العرب ثلاثة آلاف رجل، ما عدا الخيل والعُدَد الكثيرة. فلما علم الرسول بذلك من كتاب أرسله إليه عمُّه العباس، خرج ومعه ألف رجل، ثم رجع عنهم عبد الله بن أبي في ثلاث مئة من أصحابه المنافقين.

(٦٠) بجران بضم الباء وفتحها، والمشهور ضمها: موضع بناحية (الفرع) بضم الفاء وبين الفرع والمدينة ثمانية يرد.

(٦١) أُحُد جبل بالمدينة.

ولما اصطفَّ الجيشان للقتال أمر الرسولُ الرُّمَّةَ^(٦٢) (وكانوا خمسين رامياً، برئاسة عبد الله بن جُبَيْر) قال لهم لا تبرحوا مكانكم انتصرونا أم انكسرونا. ثم التقى الجمعان، فكانت النصره للمسلمين، ودارت الدائرة على قريش. فلما رأى الرُّمَّة انتصار المسلمين، تركوا مكانهم واشتغلوا بالسلب والنهب، إلا رئيسهم عبد الله وقليلًا معه. فلما رأى خالد بن الوليد (وكان يومئذ مشركًا) أن الجبل خال من الرماة، الذين كانوا حصنًا للمسلمين من ورائهم. كر بالخيـل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل. فمالوا على عبد الله ومن بقي معه فقتلوهم ثم انعطفوا على المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بالدنيا، فأعملوا فيهم السيف، فدهش المسلمون من هذا البلاء الذي صب عليهم، ودارت عليهم الدائرة بعد الانتصار، حتى انهزم جماعة منهم.

وثبت في ذلك الوقت الحرج مع الرسول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر وعمر وعلي. وقد أصابه -عليه السلام- شدائد كثيرة تحملها بصبره وحزمه، فقد شجَّ وجهه، وكسرت رباعيته بجحر، وجرحت وجنتاه، وهم بقتله عثمان بن عبد الله المغيرة، فقتله الحارث بن الصمة. وجاءه أبي بن خلف يريد قتله، فرماه -عليه السلام- بحربة فقتله. (ولم يقتل الرسول غيره قط) وكذلك أصاب المسلمين الذين كانوا يدافعون عن الرسول جراحات كثيرة.

وكان عدد من قتل من المسلمين سبعين رجلًا وتَبَّفا^(٦٣) منهم ستة من المهاجرين، والباقيون من الأنصار. وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون وقد مثلت قريش بقتلي المسلمين تمثيلًا فظيعًا.

وممن قتل من المسلمين حمزة عم الرسول، غافله وحشي (غلام جبير بن مطعم) بحربة كانت سبب هلاكه؛ وكان جبير هو الذي أرسله لهذا الأمر، أخذًا بثأر عمه (طعيمة) الذي قتله (حمزة) يوم بدر.

وهذا الانكسار يذكرنا، لو نعلم، بأمرين مهمين: أحدهما: عدم مخالفة الرسول في جميع ما يأمر به؛ لأنه لا بأمر إلا بما فيه الحكمة والسداد. والآخر، عدم الالتفات لأمر الدنيا إذا كان فيه ما يضر بالدين.

(٦٢) الرماة: من يرمون بالنبال ومفردها رام.

(٦٣) التَّبَّفَ: بتشديد الباء وتخفيفها، معناه: الزيادة. ويستعمل بعد العدد، فيقال عشرة ونيف. ومن الخطأ أن يستعمل قبله، فلا يُقال نيف وعشرة كما هو الشائع على الألسنة والأقلام.

وهذان الأمران فقدوا يوم أحد. أما الأول، فلمخالفة الرماة أمر الرسول، وأما الآخر، فليترك المسلمين الجهاد والمدافعة، وميلهم إلى السلب وعرض الحياة الدنيا. ولذلك سلط الله عليهم هذا البلاء، بعد انتصارهم على الأعداء.

غزوة حمراء الأسد^(٦٤):

وفي هذه السنة: كانت غزوة حمراء الأسد: خرج إليها الرسول صبيحة يوم أحد، يريد قريشاً، خوفاً من رجوعهم إلى المدينة. وأمر أن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس ولم يلق حرباً؛ لأنَّ المشركين لما بلغهم ذلك، أسرعوا حتى لحقوا بمكة، خوفاً من تجميع الجموع لهم.

حوادث:

وفيها: تزوج عثمان بن عفان أم كلثوم، بنت الرسول بعد موت أختها زُقية. ولذلك يسمى (ذا النورين).

وفيها: تزوج -عليه السلام- حفصة بنت عمر بن الخطاب، وزينب بنت خزيمة.

وفيها: وُلد الحسن بن علي -عليهما السلام-.

تحريم الخمر:

وفي هذه السَّنة حَرَّمَ الله الخمر تحريماً باتاً؛ لما فيها من الأضرار الظاهرة في العقل والمال والجسم. ولا ينكر ذلك إلا مُكابِرٌ. حتى إن الأطباء والعلماء في الشرق والغرب، قاموا على قدم الجد وساق الاجتهاد، يحاربون المسكرات حرباً شديداً، ويجاهدون فيمن يميل إلى تعاطيها جهاداً أدبياً عظيماً لتحقيقهم مضراتها الجمة ومفاسدها الكثيرة، ومن طالع تاريخ العرب، الذين كان أكثرهم مدمناً على شربها، وجد أن فيهم أفراداً حرموها على أنفسهم، ابتعاداً من غوائلها.

كانت الخمرة غير محرمة في أول الإسلام. ثم حرمت تدريجاً ولم تحرم البتة دفعة واحدة لصعوبة ذلك على القوم، لمحبتهم إياها وألفتهم لها. فحرمت بادئ بدء في الصلاة. ولما

(٦٤) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة المنورة.

شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة، قال الله تعالى: { لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } ثم حرمت قطعياً؛ لما اعتدى بعض المسلمين على إخوانهم، بقوله عز وجل: { إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ ^(٦٥) مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ }.

أما الرسول وطائفة من أصحابه فلم يذوقوها مدى حياتهم قطُّ.

(٦٥) الميسر: القمار. و«الأنصاب»: الأصنام تنصب للعبادة. وكل مما نُصِبَ ليعبد من دون الله، فهو «نُصْب» -بفتح فسكون- ونُصْب -بضم فسكون- ونُصْب -بضممتين-، «والأزلام»: قداح القمار وأدواته، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، أي يقامرون بها، ويطلون القسم بها، «والرجس»: النجس.

السنة الرابعة للهجرة

غزوة بني النضير:

فيها غزوة بني النضير: وهي قبيلة كبيرة من يهود المدينة، كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ يأمنُ به كلٌّ منهم كيد الآخر. وقد اتفق أن الرسول كان مع نفرٍ من أصحابه في ديارهم فزَيَّنَ لهم الشيطان أن يقتلوا الرسول، فخرج من عندهم وتبعه أصحابه، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلأ^(٦٦) عن البلاد فأطاعوا، ثم امتنعوا، فحاصرهم المسلمون حتى أجبروهم على الرحيل. فرحلوا، وحملوا أموالهم ونساءهم وأولادهم، إلا آلة الحرب وما لا يستطيعون حمله على الإبل.

غزوة ذات الرِّقاع^(٦٧):

وفيها غزوة ذات الرقاع: خرج الرسول، ومعه سبع مئة مقاتل، يريد قبائل من نجد، (وهم بنو محارب وبنو ثعلبة، من بني غطفان)؛ لأنهم تهيئوا لحرب المسلمين. فلَمَّا علموا بخروجه هربوا، وتركوا نساءهم.

ثم اجتمع منهم جمعٌ لقتال الرسول، فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم تكن حربٌ.

صلاة الخوف ورخصة التَّيَمُّم:

وفي هذه الغزوة: نزل جبريل -عليه السلام- بصلاة الخوف. وفيها أيضًا نزلت رخصة التيمم.

(٦٦) الجلاء: النزوح.

(٦٧) سُمِّيَتْ بذات الرقاع لأنهم رفعوا فيها راياتهم وفي البخاري ما يدل على أنها سميت بذلك لأنهم لفوا على أرجلهم فيها الخرق.

غزوة بدر الآخرة:

وفيها: غزوة بدر الآخرة: خرج الرسول إليها ومعه ألف وخمسة مئة رجل، لميعاد أبي سفيان^(٦٨). ولم يكن قتال؛ لأن أبا سفيان قد أخلف الوعد.

وكان قد أرسل إلى المدينة رجلاً ليخوف المسلمين منه ومما جمعه لهم من الجموع، فلم يزد لهم إلا إيماناً وثباتاً. وقد ظن أن عمله هذا يثبط^(٦٩) المسلمين عن الخروج، فلا يكون هو المخلف للوعد.

حوادث:

وفيها: توفيت زينب بنت خزيمة، زوج الرسول.

وفيها: وُلد الحسين بن علي -عليهما السلام-.

وفيها: تزوج -عليه السلام- أم سلمة هنداً.

وفيها: أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود ليكتب له إليهم، ويقرأ له ما يكتبونه إليه.

(٦٨) كان أبو سفيان قال لهم يوم أحد قبل انصرافه: «موعدكم بدر، العام المقبل»، فأجابه المسلمون إلى ذلك، وخرجوا هذه السنة إيفاء بالوعد.

(٦٩) أي: يشغلهم عنه ويمنعهم منه.

السنة الخامسة للهجرة

غزوة دُومَة الجَنْدَل (٧٠):

وفيها: غزوة دومة الجندل: خرج إليها الرسول بألف رجل يريد جمعًا من الأعراب، يظلمون من مر بهم، وقد عزموا على غزو المدينة فلما دنا منهم هربوا وتركوا ماشيتهم فاستاقها المسلمون، ورجعوا، سالمين غانمين.

غزوة بني المصطلق (٧١):

وفيها: غزوة بني المصطلق (وُسِّمَ المُرَيْسِيعُ^(٧٢) أيضًا): خرج إليهم الرسول لتجييشهم الجيوش لحرب المسلمين. وهم ممن ساعدوا قريشًا يوم أحد. ولما علموا بخروج الرسول، خافوا خوفًا شديدًا، وتفرَّقَ عنهم من كان معهم من العرب.

فلما بلغ المسلمون المريسيع، تصافَّ الفريقان للقتال، فترامَوْا بالنِّبَال ساعةً. ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فأصابوهم، وسبوا النساء والرجال والدُّرِّيَّةَ والأموال، وقتلوا منهم عشرة. ولم يقتل من المسلمين إلا واحدًا، وأَسْرَوْا سائرهم.

وكان في الأسرى من نساء الأعداء برة بنت الحارث سيد القوم، فتزوجها الرسول، وسماها جويرية، وكان من قومها مئتا أسير وزعوا على المسلمين. فلما تزوجها النبي، قال المسلمون: (أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا)، فمِنُوا عليهم بالعنق.

وإن فيما فعله الرسول من زواجه ببنت الحارث، من حُسن السياسة ومنتهى الكرم، ما لا يدركه إلا رسول الله. وكان هذا الكرم العظيم سببًا في إسلام بني المصطلق جميعًا وصاروا أَعوانًا للمسلمين بعد أن كانوا أعدائهم.

(٧٠) دومة الجندل، بضم الدال: هي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليالي، وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة.

(٧١) المصطلق: لقب جذيمة بن سعد بن عمرو، سمي به لحسن صوته، وكان أول من غنى من خزاعة.

(٧٢) المريسيع: هو ماء لبني خزاعة.

غزوة الخندق

وفيها: غزوة الخندق (وهي غزوة الأحزاب): اجتمع طوائف من مشركي قريش وغيرهم من العرب وبنو النضير من اليهود، لحرب المسلمين وعددهم عشرة آلاف رجل ويرأس الجميع أبو سفيان؛ لأنه كان قائدهم العام.

أما المسلمون فلم يخرجوا من المدينة، بل حفر الرسول خندقاً^(٧٣) عملاً بإشارة سلمان الفارسي، حذراً من هجوم الأعداء عليها. وأما المشركون واليهود فحاصروا المدينة وضيقوا عليها تضيقاً شديداً. واستمر الحصار خمسة عشر يوماً.

وفي ذلك الوقت نقض بنو قُرَيْظَةَ اليهود العهد، وجأهروا المسلمين بالعداوة. وكذلك المنافقون، أبرزوا ما تكنه صدورهم من النفاق. فاشتد عند ذلك البلاء وعظم الخوف على المسلمين؛ لأن العدو أتاهاهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن المسلمون بالله الظنون. فأرسل الرسول عند ذلك خمس مئة مقاتل لحراسة المدينة، خوفاً على النساء والذراري.

ولم يزلوا على هذه الحال، إلى أن هرب الأحزاب المحاصرون، من خوف أصابهم، وأراح الله المسلمين من هذه النقمة.

وذلك أن الله سلط على الأعداء ليلاً ريحاً شديدة وجنوداً لم يروها، فهبت ريح الصبا فقلعت الأوتاد، وألقت عليهم الأبنية؛ وكفأت القدور، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصى، فهربوا من ليلتهم. وفي البخاري: (دعا رسول الله على الأحزاب، فقال اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم).

وفي هذه الغزوة قتل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عمرو بن ود العامري.

وقد أقام المسلمون في الخندق خمسة عشر يوماً.

(٧٣) حفر الخندق من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهي الجهة التي كانت تؤتي المدينة من قبلها.

غزوة بني قريظة:

وفي هذه السنة: (الخامسة) غزوة بني قريظة، من يهود المدينة: خرج إليهم الرسول لنقضهم العهد وإظهارهم العداوة يوم الأحزاب، ومعه ثلاثة آلاف، فحاصروهم. ثم طلبوا أن يمنحهم ما منح بني النضير، فأبى. ثم نزلوا على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ فحكم فيهم: بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذرية والنساء. فحُفِرَ لهم أُخْدُودٌ^(٧٤) في سوق المدينة، وضربت أعناقهم، وكانوا ما بين ست مئة إلى سبع مئة.

إبطال عادة التبني:

وفيها تزوج الرسول زينب بنت جحش ابنة عمته، بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، الذي كان الرسول قد تبناه^(٧٥).

وقد أمره الله أن يتزوجها إبطالاً لعادة التبني السيئة؛ لأن العرب كانت تعتبر المتخذ ابناً كابن حقيقي: يرث ويورث، إلى غير ذلك من أحكام البنوة. فأراد الله أن يبطل هذه العادة السيئة، فأمر رسوله أن يزوج زيداً بزینب بنت جحش، فزوجها منه. فلما دخل عليها وجد من كبريائها وعظمتها ما لم يقدر على تحمله. فشكاها إلى الرسول. فأمره باحتمال الصبر، فصبر، إلى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها.

ولما كانت المعاشرة بين مثل هذين الزوجين لا تأتي بغير النفور أمر الله الرسول بأن يتزوج زينب بعد طلاقها رفعا للنزاع والشقاق، وإبطالاً لعادة التبني؛ لأن العرب كانوا يرمون مثل هذا الزواج^(٧٦) لاعتبارهم إياه نكاح الأب لمطلقة ابنه. فخشي الرسول أن يُعيره العرب، فيقولوا: تزوج محمد مطلقة ابنه. فكان يخفي في نفسه هذا الأمر، وهو يعلم أنه لا بد حاصل، لإبطال هذه العادة القبيحة. وقد كان الأمر كذلك بعد زواج النبي بزینب، فقد صار زيدٌ يُدعى زيد بن حارثة، بعد أن كان يدعى زيد بن محمد وأنزل الله في ذلك: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }.

(٧٤) الأخدود: شق مستطيل في الأرض.

(٧٥) أي: اتخذه ابناً. وكان زيد قبل ذلك مولى: أي رقيقاً.

(٧٦) الزواج بفتح الزاي الاسم من الزوج، كاللأم من التسليم، وقد تكسر الزاي على معنى المفاعلة - فيكون كالنكاح لفظاً ومعنى.

وأما ما يرويه، في هذا المقام، بعض من لا خلاق لهم: (من أن الرسول رأى زينب اتفاقاً، فوقع في قلبه. فلما علم زيدٌ بذلك، استشار الرسول في طلاقها، رغبة في أن يتزوجها الرسول) فهو من الأقوال الساقطة التي لا يرويها إلا من فقد رشده وأضاع عقله. ونعوذ بالله من ذلك.

وقد أبطل هذا الزعم أدلة العقل والنقل. ومن أراد الزيادة فليرجع إلى كتاب الشفاء للقاضي عياض، أو إلى رسالة كتبها في هذا الموضوع شيخنا الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية^(٧٧) رضي الله عنه.

على أن كلمة واحدة تكفي لرد هذا الزعم، وهو أن النساء لم يكن محجوبات في زمن الرسول، فكأنه لم يرها قبل ذلك اليوم!! أو كأنه لم يستطع أن يتزوجها قبل أن يتزوجها من مولاه^(٧٨) زيد بن حارثة!! إن هذا لشيء عجاب!!.

آية الحجاب:

وفي هذه السّنة: (الخامسة) ضُرب الحجاب على نساء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ونزلت آيته، وهي قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ }.

واعلم أن الحجاب ثلاثة حجب:

حجابٌ يراد به أن لا يكون بين النساء والرجال اختلاطٌ إلا مع ذي محرم وهو المراد من هذه الآية. وقد قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي محرم»، رواه البخاري. وهذا عامٌ لنساء النبي وغيرهن. ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين.

وحجاب يراد به ستر المرأة جميع بدنّها إلا الوجه والكفين، وزاد بعض العلماء القدمين للفقيرات، اللواتي تدعوهن الضرورة للعمل في المزارع وغيرها، وهو المراد بقوله تعالى: {

(٧٧) وهذه الرسالة مطبوعة على حدة مع تفسير الفاتحة للأستاذ الإمام رضي الله عنه.

(٧٨) المولى: العبد الرقيق. ويكون أيضاً في غير هذا الموضع يخشى ابن العم، ويمضي السيد: قال الشاعر:

وهل يتساوى سادةٌ وعبيدُهم
على أن أسماء الجميع موالي

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِرِزْوَانِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ { (٧٩)
 (الأحزاب: ٥٩) وقوله: { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ }^(٨٠) إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا^(٨١) وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ^(٨٢)
 عَلَى جُيُوبِهِنَّ^(٨٣) { (النور: ٣١).

وحجاب يراد به أن تستر المرأة جميع بدنّها، حتى وجهها وكفيها وهذا خاص بنساء النبي -صلى الله عليه وسلّم-. ولم يخالف في ذلك أحدٌ من المسلمين، ممن يعتد بقوله. لأن الدلائل على ذلك متضاربة. وقد كانت نساء النبي، بعد أن ضرب الحجاب عليهن، إن خرجن لا يخرجن إلا ساترات كل شيء حتى الوجه والكفين.

ثم رأى جمهور علماء الأمة، بعد ذلك، أن يعم هذا الشكل من الحجاب غيرهن أيضاً، عندما رأوا الحاجة ماسة إلى ذلك.. ولكنهم لم يوجبوه مطلقاً، بل حيث تدعو إليه الضرورة كالمدن، التي فسدت فيها الأخلاق. فلم تؤمن فيها الفتنة، ولم نر منهم من نعى على نساء البوادي والقرى كشف وجوههن وأيديهن وأقدامهن.

فريضة الحج:

وفي هذه السنة فُرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً.

وإن في الحج من الحكم ما لا يدرّيه إلا ذو بصيرة، ويكفي من ذلك اجتماع المسلمين، على اختلاف الأجناس واللغات والبلاد، في محلٍّ واحدٍ، لِيُجَدِّدُوا عهود الإخاء والولاء،

(٧٩) يدنين عليهن من جلابيبهن: يرخين عليهن بعض الجلباب، سترًا لأعضائهن التي لا يسترها الخمار، ولثيابهن التي لا يليق لهن أن يظهرن بها في الطريق أو أمام غير ذي محرم. والجلباب: ثوب واسع سابغ تلبسه المرأة فوق ثيابها. وفي تفسير الجلالين أنه الملاءة التي تشتمل بها المرأة وكذلك في المخصص لابن سيده.

(٨٠) لا يبدِينَ زِينَتَهُنَّ: لا يظهرنّها عمدًا. فذلك محرم لا يليق بذات الدين والشرف والخلق الطيب.

(٨١) أي: إلا ما ظهر منها ظهورًا غير مقصود. بأن ظهر بنفسه اتفاقًا والزينة عامة في كل ما يقصد به التجميل. من تحسين وجه أو قلادة أو سوار أو ثوب أو نحوها، فكل ذلك محرم إظهاره. فإن ظهر منه شيء ومن غير قصد إلى إظهاره، بحيث انكشف ما يستره بريح أو حركة غير مقصودة، فذلك لا يؤخذن عليه. فإن تنبهن له سترته، فذلك قوله تعالى: { إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } وهذا هو الحق في معنى الآية وهذا هو ما يقتضيه أسلوب التعبير فيها، فلا تلتفت إلى غير هذا مما قالوه.

(٨٢) الخمر: جمع خمار، وهو ما تختمر به المرأة.

(٨٣) الجيوب: جمع جيب، وهو طوق القميص حيث يدخل منه الرأس. وقد كانت هذه الجيوب أي الأطواق - واسعة تبدو منها نحو رهن وشيء من صدورهن وما حوالها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن، فتبقي هذه المواضع مكشوفة فأمرهن الله بضرب الخمار عليها ليغطيها.

ويدعوا الله عز وجل أن يؤيدهم بنصره. ويمكن قواعد الألفة بينهم. ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد، السياسية والدينية، الجليلة، التي تعود على الأمة بالخير العميم، إن فهم السر من هذا الاجتماع العظيم.

السنة السادسة للهجرة

غزوة بني لحيان:

فيها: غزوة بني لحيان (وهم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه غدراً) ^(٨٤) خرج الرسول إليهم بمئتي راكب فلم يلق أحداً.

غزوة الغابة:

وفيها: غزوة الغابة خرج إليها الرسول في خمس مئة رجل في طلب عيينة بن حصن وأربعين فارساً معه، (لأنهم أغاروا على لقاح ^(٨٥) الرسول وسلبوها، وقتلوا ابن أبي ذر) فكان بين الفريقين مناوشاتٌ، قُتل فيها مسلم ومشركان. واستنقذوا عشر لقاح ثم رجعوا.

وكان الرسول قد منَّ على عيينة هذا، وأعطاه أرضاً ليرعى فيها بُهْمَهُ ^(٨٦). فكفر النعمة. ثم إنه لم يكفه أن كان مع الأحزاب يوم الخندق، بل زاد على ذلك سلبه لقاح الرسول.

غزوة الحديبية ^(٨٧):

وفيها: غزوة الحديبية: خرج الرسول معتمراً في ألف وأربع مئة ورجل بلا سلاح، إلا سلاح المسافرين: وهي السيوف في الأغمداد. فلما علمت قريش جمعت الجموع لتصدّه عن البيت الحرام.

فلما كان الرسول وأصحابه بغدير الأشطاط بلغه ذلك، فقال: «أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذريهم هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» قال أبو بكر: «يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحدٍ، ولا حرب أحد، فتوجه

(٨٤) كان الرسول قد أرسل إليهم عشرة رجال برئاسة عاصم المذكور مع رهط من عضل والقارة، ليفقهوهم وقومهم في الدين فغدروا بهم، وحرضوا عليهم بني هذيل، فقتلوا منهم ثمانية، وباعوا الاثنين لأهل مكة فقتلوهما أيضاً.

(٨٥) اللقاح: جمع لقحة، بكسر القاف وسكون الحاء، وهي النياق ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة.

(٨٦) البهم بفتح أوله وسكون ثانيه: أولاد الغنم والمعز والبقر. والوحدة «بصمة».

(٨٧) الحديبية: بئر على مرحلة من مكة، كما في البخاري وشرحه.

له، فمن صدنا عنه قاتلناه»: قال: «امضوا على اسم الله».

فلما كانوا بَثْنِيَّةَ المَرَارِ بَرَكْتَ نَاقَةُ الرِّسُولِ، فزَجَرُوهَا، فَلَمْ تَقُمْ، فَقَالُوا: «خَلَّاتِ الْقِصْوَاءَ»^(٨٨) -أي: حُرَّتْ- فقال الرسول: «ما خَلَّاتِ الْقِصْوَاءَ، وما ذاك لها بِخَلْقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةَ يَعْظُمُونَ فِيهَا حَرَمَانَ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثِبَتْ، فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيدِيَّةِ.

ثم حصل الصلح بين الفريقين، وهو الصلح المعروف بصلح الحديبية. ولم تكن حرب. مع أن المسلمين لو قاوموا أعدائهم، في ذلك الوقت، لظفروا بهم. ولكنهم حافظوا على حرَمَاتِ الْبَيْتِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ حَرَمًا آمِنًا:

وكان الصلح:

(١) على أن توضح الحرب بينهم عشر سنوات، وقيل أربعًا.

(٢) وأن يأمن بعضهم بعضًا.

(٣) وأن يرجع عنهم عامهم هذا.

(٤) وعلى أنه لا يأتيه منهم رجلٌ، وإن كان على دين الإسلام إلا رده إليهم، وأن لا يردوا إليه من جاءهم من عنده.

(٥) ومن أراد أن يدخل في عهد محمدٍ من غير قريش دخل فيه، ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه.

بيعة الرضوان:

وفي هذه الغزوة حصلت ببيعة الرضوان: وذلك أن الرسول كتب صلح الحديبية في كتاب، وأرسله إليهم مع عثمان بن عفان وجماعة من المسلمين، فأمسك المشركون عثمان عندهم، فشاع أنه قُتِلَ. فدعا الرسول الناس إلى البيعة تحت الشجرة على الموت، وقيل على أن لا يفروا. وهي الشجرة المعروفة بشجرة الرضوان^(٨٩). فلما علمت قريش بذلك خافوا. وبعثوا

(٨٨) القِصْوَاءُ: اسم ناقة الرسول، والقِصْوَاءُ في الأصل من الشاة والنوق: التي قطع طرف ذنبها.

(٨٩) قطع هذه الشجرة بعد ذلك عمر بن الخطاب في أيام خلافته، لما رأى بعض المسلمين قد خصها بالصلاة

بعثمان ورفاقه.

وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ }»، وقوله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }.

وفي هذه الغزوة نزلت سورة الفتح، وهو قوله تعالى: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } السورة. فتسلى المسلمون بذلك، بعد أن ضايقتهم شروط الحديبية الجائرة، وعلموا أنها مقدمة لفتح مكة وأنهم لا بد أن يدخلوها آمنين مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومُقَصِّرِينَ لا يَخَافُونَ. قال ابن عباس: «الفتح هنا، فتح الحديبية ووقوع الصلح».

مراسلة الملوك:

وفي هذه السنة بعد رجوع المسلمين من الحديبية، راسل -عليه السلام- الملوك يدعوهم إلى الإسلام. واتخذ خاتماً من فضة فيه: (محمد رسول الله).

فمنها: كتابٌ إلى قيصر ملك الروم، وكتاب إلى أمير بُصرى، وكتابٌ إلى أمير دمشق من قبل هرقل (واسمه الحارث بن أبي شَمْر الغساني. وكان يُقيم بغوطتها)، وكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل قيصر، وكتابٌ إلى النجاشي^(٩٠)، وكتابٌ إلى كسرى ملك الفرس (فلما أخذه هذا مَرْقَه استكباراً) وكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، فأسلم، وكتابٌ إلى جَيْفَر وعبدِ ابْنِي الْجَلَنْدَى مَلِكِي عُمان، فأسلما، وكتابٌ إلى هُوْدَةَ بن عليٍّ ملك اليمامة.

أما كتابه إلى قيصر فقد جاء فيه قوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فيإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين^(٩١) فإن

تحته، وقال لهم: «أراكم قد رجعتكم إلى وثنيكم الأولى» وقد أحسن بهذا العمل، قطعاً لعرق الوثنية: ولو كان في أيامنا ورأى كثيراً من أمثالها فماذا كان يفعل؟

(٩٠) النجاشي: لقب لمن يملك الحبشة، كقيصر لمن يملك الروم، وخاقان لمن يملك الترك، ويجوز أن تشدد ياء النجاشي، وتخفيفها أفصح.

(٩١) مرة لإيمانه بالنصرانية وكتابتها، ومرة لإيمانه بالإسلام وكتابه.

توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(٩٢). ويا أهل الكتاب. تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

فلما وصل الكتاب إلى قيصر، قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه. وكان أبو سفيان بن حرب (قبل إسلامه) بالشام، مع رجال من المشركين، في تجارة فجاؤا به وبأصحابه، فسأله قيصر عن النبي، وعن أوصاف هي فيه من صفات النبوة، فأجابه بأنه متصفٌ بها كلها، فقال له قيصر:

«فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه».

غزوة خيبر:

فيها: غزوة خيبر (وهي مدينة ذات حصون ومزارع تبعد ثمانية برد^(٩٣) عن المدينة إلى جهة الشام، حصونها ثلاثة، منفصل بعضها عن الآخر. وسكانها بنو النضير، من الذين كانوا أعظم مهيج للأحزاب يوم الخندق).

خرج الرسول في محرم هذه السنة، ومعه ألف وست مئة رجل. فسار حتى أتى خيبر ليلاً. وكان إذا جاء قومًا بليل لم يغزهم حتى يصبح، ثم حاصروهم المسلمون ستة أيام فلم ينجحوا.

فلما كانت الليلة السابعة وهي ليلة الفتح، قال الرسول: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه. فلما كان الصباح أعطاهما علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-. وكان يشتكي وجع عينيه، فتفل الرسول فيهما، ودعا له، فبرئ بإذن الله.

(٩٢) الأريسيون: جمع أريسي وهو الفلاح، أي توليت عما أدعوك إليه فعليك ذنب اتباعك من الفلاحين؛ لأنهم مطيعون لك فيما نأمرهم به.

(٩٣) البرد: جمع برید: اثنا عشر ميلاً، والميل من الأرض: منتهى مد البصر.

فتوجّه علي مع المسلمين للقتال، وشدّد الحصار على الحصون، إلى أن فتحها الله على يديه، بعد أن دافع عنها أصحابها دفاعاً شديداً أحبوا معه الموت. وغنم المسلمون منها غنائم عظيمة.

ومما ينقل أن علياً -رضي الله عنه- عالج باب خيبر واقتلعه وجعله ترساً.

حوادث:

وفي هذه السنة، بعد خيبر رجع مهاجرو الحبشة، ومعهم الأشعريون أبو موسى وقومه الذين كانوا معهم وذلك بعد أن أقاموا عشر سنين.

وفيها فُتحت فَدَك^(٩٤) وصالحه أهلها (وكانوا يهوداً) على أن يتركوا الأموال ويَحْقِن دماءهم^(٩٥).

وفيها صالح أهل تَيْمَاء^(٩٦) على دفع الجزية. وكانوا من اليهود.

غزة وادي القرى:

وفيها غزوة وادي القرى^(٩٧): دعا الرسول أهلها إلى الإسلام فأبوا، وقتلوا المسلمين، فقاتلوهم، وغنموا منهم كثيراً.

وبانقياد اليهود المجاورين للمدينة أمن المسلمون من أعداء كانوا يثيرون الحقد، ويهيجون الشرور ليضرموا نيران الحروب.

(٩٤) فَدَك: حصن قريب من خيبر، بعد ست ليال عن المدينة.

(٩٥) يحقن دماءهم، أي يمنعها أن تسفك؛ أي لا يقتلهم.

(٩٦) تيماء: هي قرية على ثماني مراحل من المدينة.

(٩٧) وادي القرى: هي قرى بين خيبر والشام.

عُمرة القضاء:

وفيها عُمرة القضاء: وذلك أنه لما أَهَلَ ذُو القعدة أمر الرسول أصحابه أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم^(٩٨) التي صدَّهم المشركون عنها يوم الحديبية، وأن لا يتخلف أحدٌ ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحدٌ، إلا رجالٌ استشهدوا بخير^(٩٩) ورجالٌ ماتوا.

ثم سار المسلمون حتى وصلوا إلى مَرِّ الظَّهْران^(١٠٠)، فعلمت قريش بذلك، فخافوا فأرسلوا فتياناً منهم إلى الرسول. فقالوا: «يا محمد، ما عُرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً، وإنا لم نحدث حدثاً». فأخبرهم أنه يريد العمرة لا قتالهم.

ولما قرب المسلمون من مكة، خرج المشركون منها إلى رؤوس الجبال، كراهية أن يروا المسلمين يطوفون بالبيت الحرام ثم رجع الرسول والمسلمون، بعد أن أقاموا في مكة ثلاثة أيام.

حوادث:

وفي هذه السنة أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة، بعد أن كانوا قادة الجيوش ضد المسلمين.

وفيها تزوج -عليه السلام- صفية بنت حيي بن أخطب، سيد بني النضير، وكانت في السَّبي يوم خيبر.

وفيها تزوج ميمونة بنت الحارث، زوج عمه حمزة شهيد أحد. وهي آخر نسائه زواجا.

(٩٨) العمرة: من أعمال الحج.

(٩٩) استشهد الرجل وأشهد -كلاهما بالبناء المجهول-: قُتل في سبيل الله.

(١٠٠) مَرِّ الظَّهْران: بفتح الظاء. موضع، وهو واد على مرحلة من مكة.

السنة الثامنة للهجرة

واقعة مؤتة:

فيها: واقعة مؤتة (وهي من عمل البلقاء بالشام). وكان قد قُتل فيها الرسول الذي أرسله -عليه السلام- إلى أمير بُصرى.

ففي شهر جمادى الأولى من هذه السنة، جهز الرسول جيشًا لقصاص من قتلوه، (وكان عدده ثلاثة آلاف رجل). وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: «إن قتل زيدًا، فالأمير جعفر، وإن قُتل جعفر، فعبد الله بن رواحة» ثم أوصاهم بوصايا، منها: «أنهم سيجدون رجالًا حبسوا أنفسهم في الصوامع، فلا يتعرضوا لهم، ولا يقتلوا امرأة ولا صغيرًا، ولا فانيًا، ولا يقطعوا شجرًا».

ثم سار زيد بن حارثة بالجيش، حتى وصلوا إلى مؤتة.

فوجدوا الروم مُجمِعِينَ لهم قريبًا من مئة وخمسين ألف مقاتل. ومعهم من العدد والذخائر ما لا قبل لأحد به، فقاتلوهم. وقاتل زيد حتى قتل. فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب. فقاتل حتى قطعت يمينه. فأخذها بشماله، فقطعت. فاحتضنها، فقتل. فأخذها عبد الله بن رواحة، فقتل: وعند ذلك كاد المسلمون ينكسرون، لولا أن أمروا عليهم الشهم الهمام خالد بن الوليد -رضي الله عنه-: فقاتل الأعداء حتى قتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة وخلص هذا الجيش القليل من محالب الأعداء، الذين لا يحصون بمكايد الحربية. ثم رجعوا إلى المدينة: وقد أثنى النبي على خالد.

ويُروى أن يعلى بن أمية قَدِمَ بخبر أهل مؤتة. فقال له الرسول: «إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتكَ».

فقال: «أخبر يا رسول الله»: فأخبره خبرهم: فقال: «والذي بعثك بالحق، ما تركت من حديثهم حرفًا لم تذكره».

فتح مكة:

وفيها: غزوة الفتح الأعظم؛ فتح مكة، وذلك أن قريشًا نقضت شرطًا من شروط الحديبية؛ لأنهم أعانوا بكرًا، التي دخلت في عهدهم، على خزاعة، التي دخلت في عهد الرسول. وذلك أن رجلًا خزاعيًا ضرب بكرًا؛ لأنه سمعه يهجو رسول الله، فعزم بنو بكرٍ على محاربة خزاعة. وطلبوا النجدة من قريش أعانوهم سرًا ودهموا خزاعة على حين غفلة، فقتلوا منهم ما يزيد على العشرين. فلما أعلموا الرسول بذلك، قال: «لأمنعنكم مما أمنع منه نفسي».

ثم إن قريشًا ندمت على ما فعلت، حين لا ينفعها الندم. فأرسلوا أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد عهد الحديبية ويزيد في المدة. فأتى النبي في المسجد، وعرض عليه ما جاء لأجله. فقال الرسول: «هل من حدث؟» قال: «لا»، قال: «فنحن على مدتنا وصلحنا»، ولم يزد على ذلك فرجع أبو سفيان بِمُخْفِي حُتَيْنٍ^(١٠١).

أما الرسول فإنه تَجَهَّزَ للسفر. وبعث إلى من حوله من العرب، وهم: أسلم وغِفَار^(١٠٢) ومُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةَ وأشْجَعَ وسُلَيْم. وطوى الأخبار عن الجيش؛ كيلا تعلم قريش.

ثم سار بالجيش (وكان عشرة آلاف مجاهد)، وذلك في رمضان.

ولقيه في الطريق عمه العباس، وكان قد خرج بأهله مسلمًا. ولقيه أيضًا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب؛ ابن عم الرسول وأخوه من رضاع حليلة، ومعه ولده جعفر فأسلما. وفي الطريق أيضًا أسلم أبو سفيان بن حرب - وكان قد جاء يتجسس أخبار رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - - فأسره حارس جيش المسلمين.

جاء في صحيح البخاري: أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - لما سار عام الفتح، فبلغ ذلك قريشًا، خرج أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يلتمسون الخبر عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - . فأقبلوا يسيرون، حتى أتوا مر الظهران^(١٠٣). فإذا هم بنيرانٍ كأنها نيران عرفة. فقال أبو سفيان: «ما هذه النيران؟ لكانها نيران عرفة». فقال بديل بن

(١٠١) أي رجع خائبًا، وهو مثل يضرب للخائب.

(١٠٢) غِفَار بكسر الغين، والفاء مفتوحة.

(١٠٣) مَرَّ الظُّهْرَان: واد قرب مكة.

ورقاء: «نيران بني عمرو». فقال أبو سفيان «عمرو أقل من ذلك». فرآهم ناسٌ من حرس رسول الله فأدركوهم، فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأسلم أبو سفيان: فلما سار، قال النبي للعباس: «احبس أبا سفيان عند حطم»^(١٠٤) الخيل، حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كتيبة كتيبة^(١٠٥) على أبي سفيان فمرت كتيبة، قال: «يا عباس، من هذه؟» قال: «هذه غفار» قال: «مالي ولغفار!». ثم مرت كتيبة جُهينة، فقال مثل ذلك. ثم مرت سعد بن هذيم، فقال مثل ذلك. ثم مرت سليم فقال مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها قال: «من هذه؟» قال: «هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة، معه الراية» فقال سعد بن عبادة: «يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة» فقال أبو سفيان «يا عباس، حبذا يوم الذمار». ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه، وراية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع الزبير بن العوام. فلما مر رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأبي سفيان، قال: «ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال: قال: «كذا وكذا» فقال: كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويومٌ تكسى فيه الكعبة» اهـ.

ثم سار الرسول ومن معه، وأرسل خالد بن الوليد بمن معه ليدخل مكة من أعلاها. وأمره أن لا يقاتل إلا من قاتله. ودخل الرسول من أسفلها. فاندفع خالد فصدّه رجالٌ من قريش. فقاتلهم وهزمهم.

ثم آمن الرسول أهل مكة. ونادى منادٍ بأمر الرسول: «من دخل المسجد فهو آمن». ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن». واستثنى أشخاصاً أهدر الرسول دمهم، لمسائوهم التي لا تحصى. فمنهم كعب ابن زهير وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (الذي كان كاتب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام، وافترى الكذب على الرسول)، ومنهم وحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة، زوج أبي سفيان.

(١٠٤) أي: في الموضع المتضايق الذي تتحطم فيه الخيل، أي يدوس بعضها بعضاً، ويزحم بعضها بعضاً، فيراها جميعها وتكثر في عينه في مرورها في ذلك الموضع الضيق.
(١٠٥) الكتيبة: الجيش، أو جماعة الخيل من المئة إلى الألف.

وفي البخاري. دخل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مكة يوم الفتح، وحول الكعبة ستون وثلاث مئة نُصْب^(١٠٦) فجعل يطعنها بعودٍ في يده، ويقول. «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» اهـ.

ثم أمر بالآلهة، فأخرجت من البيت. وفيها صورتا إبراهيم وإسماعيل. وبذلك طهر الله الكعبة، البيت الحرام، من هذه المعبودات الباطلة، واستبدل بها عبادة الله تعالى وحده.

ثم دخل الكعبة، وكبر في نواحيها. ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه. ثم شرب من ماء زمزم.

ثم جلس في المسجد، والأبصار خاشعة إليه، لترى ما هو فاعل بمشركي مكة أعدائه، الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده، وهموا بقتله مرارًا، وقتلوه. ثم قام فيهم خطيبًا فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال:

أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة. فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعصده^(١٠٧) بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله، ولم يأذن لكم. وإنما أحلت لي ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس. فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم قال:

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟» قالوا: «خيرًا، أخ كريمٌ، وابن أخ كريمٍ». قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا، ولم يؤسروا.

ثم ابتدأ الناس يبائعون رسول الله على الإسلام ومن أسلم في ذلك اليوم معاوية بن أبي سفيان: وأبو قحافة والد أبي بكر الصديق.

(١٠٦) النصب: الصنم، وكل ما نصب فعبد من دون الله. وهو بضم النون وسكون الصاد. وقد تضم صاده. ويجوز فيه أيضًا فتح النون مع سكون الصاد. وجمع الكل النصاب.
(١٠٧) يعصده: يقطع.

وجاءه رجلٌ يرتعد خوفاً. فقال له: «هون عليك، فإني لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكن يبايعنه على: (أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول في معروف).

ثم أمر بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة. فأذن.

ثم أرسل -عليه السلام- سرايا^(١٠٨) لهدم أصنام القبائل. فهدمت العُزى (وهي أعظم صنم لقريش في نخلة) ثم هدمت سواع (وهو صنم كبير لهديل على ثلاثة أميال من مكة). ثم هدمت مناة (وهو صنم لكلب وخزاعة في المشلل)^(١٠٩).

أما الذين أهدر دمهم الرسول، فمنهم من قُتل، ومنهم من عزت عليه الحيل، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، حتى جعل الله له مخرجاً. فأسلم منهم عكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وصفوان بن أمية. وأسلم الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية المخزومي، بعد أن أجارتهما أم هانئ، بنت أبي طالب فأجاز الرسول جوارها. وقال: «إننا قد أجزنا من أجرت يا أم هانئ». وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وقد أعرض عنه الرسول مراراً لخيانته وعدم ثباته على مبدئه وكذبه على الله ورسوله. وأسلمت هندٌ، زوج أبي سفيان. وأسلم كعب بن زهير، وأنشده قصيدته التي يقول في مطلعها.

بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتَيْمٌ إِتْرَهَا، لَمْ يُقَدَ مَكْبُولُ

ومنها في مدحه -عليه السلام-.

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوبُ

ولما قال هذا البيت، خلع الرسول عليه بردته، ولذا تُسَمَّى هذه القصيدة بقصيدة البردة^(١١٠).

(١٠٨) السرية: القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مئة وجمعها سرايا.

(١٠٩) المُشَلَّل: جبل على ساحل البحر بمحيط منه إلى قديد (بضم القاف وفتح الدال).

(١١٠) ولقد اشترى ساوية بن أبي سفيان، أيام خلافته، هذه البردة من أبناء كعب ثم صار يتوارثها الملوك

قصة وحشي قاتل حمزة:

وأما وحشي قاتل حمزة الذي أهدر الرسول دمه مع من أهدر دمائهم؛ فكان من حديثه ما رواه البخاري:

قال وحشي بعد أن حكى مقتل حمزة: «فلما رجع الناس رجعت معهم. فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام. ثم خرجت إلى الطائف. فأرسلوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رسلاً، فقبل لي: إنه لا يهيج الرسل -أي: لا يناههم منه مكروه-. قال: فخرجت معهم. حتى قدمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فلما رأني قال: «أنت وحشي؟» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة؟». قلت: «قد كان من الأمر ما قد بلغك». قال: «فهل تستطيع أن تعيب وجهك عني؟» قال: فخرجت: فلما قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فخرج مسيلمة الكذاب فقلت: لأخرجن إلى مسيلمة، لعلي أقتله فأكفئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان. فإذا هو رجل قائم في ثلثة^(١١١) جدار، كأنه جمل أورق^(١١٢)، نائر الرأس. فرميته بحرتي، فأضعها بين ثدييه، حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووثب إليه رجل من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته».

واقعة حنين

وفي هذه السنة (الثامنة): غزوة حنين^(١١٣) سار إليها الرسول قبل أن يرجع من فتح مكة. (ومعه عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان ممن أسلم يوم الفتح)، يريد قبيلتي ثقيف وهوازن؛ لأنهم جمعوا الجموع لحربه، وخرج معه أيضاً ثمانون من المشركين.

ولما وصلوا إلى حنين سمع الرسول رجلاً يقول: «لن نغلب اليوم من قلة». وأعجب المسلمون بكثرتهم. فصعب ذلك على الرسول.

ثم التقوا بالعدو. وكان على جانب عظيم من الكثرة. وكان كامناً لهم في مضيق الوادي. فقابلهم بنبل كالجراد المنتشر. وكان يوماً هائلاً. فدهش المسلمون وانحزموا ولم يثبت مع الرسول

والخلفاء، حتى وقعت للترك من ملوك بني عثمان.

(١١١) الثلثة: فرجة في الحائط وغيره من خلل أو هدم.

(١١٢) أورق أسمر كالرماد.

(١١٣) حنين: واد قرب الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال.

إلا جماعة، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث، ابن عم الرسول.

كل ذلك، والنبي وافق في ذلك المعتزك الضنك والمأزق الحرج ثابت الجأش قوي الجنان، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ثم نادى العباس الأنصار بأمر الرسول وكان جهوري الصوت. فانعطفوا على النبي، كأنهم الإبل حنت إلى أولادها، ودافعوا عنه، وصدقوا الحملة وقتلوا الأعداء قتلاً شديداً، حتى هزموهم بإذن الله. (وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة.

وقتل من المشركين أكثر من سبعين، وأسر منهم كثير، وأخذ المسلمون نسائهم وذريتهم وأموالهم وقتل من المسلمين أربعة.

وأسلم كثير من أهل مكة، الذين كانوا مع المسلمين في هذه الغزوة، بعد أن فرحوا بانكسارهم واستهزؤوا بهم. وذلك لما رأوه من عناية الله بالمسلمين، ونصره إياهم، بعد أن ولوا الأدبار، وانهمزوا شر هزيمة.

ومن تأمل هذا الانكسار، الذي حصل للمسلمين أول الأمر، يجد أن مصدره شيئان مهمان:

الأول: الاغترار بالكثرة والافتخار بوفرة العدد، وعدم الاتكال في النصر على الناصر الحقيقي، وهذا يستدعي الثبات أمام العقبات، وتحمل الصدمات والصبر إن ألمت ملومات وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}.

والثاني: أن الجيش كان أخلاطاً من المشركين والأعراب، ومن كانوا حديثي عهد بالإسلام وهؤلاء لا يهمهم انتصار المسلمين أو انكسارهم، فلا يدافعون عن الإسلام حق المدافعة كمن يقاتل مخلصاً، دفاعاً عن دينه في سبيل الله معتقداً أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، يعذبه الله عليه عذاباً شديداً.

وفيها: غزوة الطائف: سار إليها الرسول بمن كان معه يوم حنين لطلب الفارين، فوجدهم قد تحصنوا وتزودوا بما يكفيهم قوت سنة. فلما رأوا المسلمين نضحوهم بالنبال نضحًا شديدًا، فأصيب منهم كثيرٌ ومات اثنا عشر رجلًا بالجراح وبقي الحصار تسعة عشر يومًا. فلم يغن ذلك شيئًا. ثم انصرف الرسول بمن معه، ورجع إلى الجعرانة حيث ترك سبي حنين. وبعد أيام، أتى الرسول وفود هوازن مسلمين فخيرهم بين السبي والمال. فاختاروا السبي وتركوا الأموال.

رجوع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى المدينة:

وبعد أن أقام الرسول بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، أحرم منها بعمره، ودخل مكة ليلاً. فطاف واستلم الحجر ورجع بالجيش من ليلته إلى المدينة. وكان غيابه عنها شهرين وستة عشر يومًا.

وبهذا الفتح الأعظم: (فتح مكة) دانت للإسلام جموع الشرك وانحلت عراهم، ووهنت قواهم، وأذهب الله ظلامهم بينزوغ شمس الإسلام على ربوعهم.

السنة التاسعة للهجرة

سفانة وعدي:

في هذه السنة أرسل الرسول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في مئة وخمسين فارساً إلى الفُلس (وهو صنم طيء) فسار إليه وهدمه وأحرقه. وقاتل عباده وهزمهم. وغنم سبيًا ونعمًا وشاء. وكان في السبي سَفَّانة بنت حاتم الطائي الكريم الجواد الشهير.

فلما رجعوا إلى المدينة، مَنَّ الرسول على سَفَّانة بإطلاق أسرها. وقال: «أن أباهَا كان يحب مكارم الأخلاق» فدعت له بخير، وكان من دعائها: «شكرتك يَدُّ افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يَدُّ استغنت بعد فقر، وأصاب بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم. إلا جعلك سببًا لردّها عليه».

أما أخوها عدي فإنه هرب إلى الشام، لما رأى المسلمين قد دخلت بلاده. فلما أطلق الرسول سفانة أخته، ذهبت إليه وأخبرته بما عاملها به الرسول «عليه السلام» من الكرم، وأشارت عليه أن يذهب إليه ويتبعه. وقالت: «إن يكن نبياً فللسابق إليه فضلٌ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت»: فخرج حتى جاء المدينة. ولقي الرسول. وكلمه وأخبره أنه عدي ابن حاتم. فأخذه الرسول إلى بيته. فلما كانا في الطريق، وقفت الرسول عَجُوزٌ فانيةٌ وَقَفًا طويلاً تكلمه في حاجة لها. فلما رأى عدي ذلك، قال: «والله ما هو بملك» فلما أتيا البيت قال له الرسول: «يا عدي، أسلم تسلم»، قالها ثلاثاً فقال عدي: «إني على دين» «وكان نصرانيًا» فقال: «أنا أعلم بدينك منك». ونصح له الرسول، ووعظه فأسلم وحسن إسلامه.

غزوة تبوك:

وفيها غزوة تبوك^(١١٤) وتعرف أيضاً بغزوة العُسرة؛ (لأنها كانت في زمن عُسرة الناس، وجَدَّب^(١١٥) الأراضي وشِدَّة الحرِّ، في وقت يُحِبُّ الناس فيه الراحة والدَّعة^(١١٦)) وقد طابت

(١١٤) تبوك: مكان معروف في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق.

(١١٥) الجذب: القحط.

(١١٦) الدعة: السكون.

الظلال والثمار). وقد استقبل المسلمون فيها سفرًا بعيدًا، ومفاوز^(١١٧) مُهلكة، وعدوًا كثيرًا. حتى إنهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكانت العسرة في الماء والظهر والنفقة.

وسببها أن الروم جمعت الجُمُوع بالشام مع هرقل، تريد غزو المسلمين في بلادهم. فعلم الرسول بذلك، فجمع الجموع من مكة والمدينة وقبائل العرب. وطلب من الموسرين تجهيز المعسر^(١١٨) فجاء عثمان بن عفان بعشرة آلاف دينار وثلاث مئة بعير، بأحلاسها وأقتابها^(١١٩)، وخمسين فرسًا، فدعا له الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بخير. وجاء أبو بكر بكل ماله (وهو أربعة آلاف درهم) وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية. وجاء العباس وطلحة بمال كثير. وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقًا^(١٢٠) من تمرٍ وأرسل النساء بكل ما قدرن عليه من حليهن: ثم جهز عثمان والعباس أيضًا ويامين بن عمرو قومًا آخرين جاؤوا إلى الرسول يسألونه الحملان فقال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» وهم الذين قال الله فيهم: { تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ }.

ولما تأهب الرسول للخروج، قال قومٌ من المنافقين: «لا تنقروا في الحر، قل: نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون».

وجاء المعذرون من الأعراب (وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة) يستأذنونهم في التخلف عنه، فأذن لهم (وكانوا اثنين وثمانين رجلًا). وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر، يرأسهم عبد الله بن أبي، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: { وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ }.

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب.

(١١٧) المفاوز: جمع مفازة، وهي الفلاة المهلكة.

(١١٨) الموسرون: الأغنياء، (المعسر): الفقراء.

(١١٩) الأحلاس: جمع حلس، وهو ما يوضع على ظهر الدابة تحت الرجل أو البردعة أو السرج والاقتاب جمع قتب وهو الرجل أو البردعة.

(١٢٠) الوسق: حمل البعير، أو ستون صاعًا.

وقد استأذنه جماعة من المنافقين فأذن لهم. وقد قرعهم الله بقوله: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا (١٢١) وَسَفَرًا قَاصِدًا (١٢٢) لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ (١٢٣) وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

وقد عتب الله عليه في الإذن لهم بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ (١٢٤) فَتَبَطَّحَهُمْ (١٢٥) وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (١٢٦) وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ (١٢٧) يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ (١٢٨) حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}.

واستخلف -عليه السلام- على المدينة وأهله علي بن أبي طالب. وقيل: بل استخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وعلى أهله علياً، فقال علي: «أتخلفني على الصبيان والنساء؟» فقال -عليه السلام- ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي.

ثم سار الرسول بالجيش، وكان ثلاثين ألفاً فلما كانوا في بعض الطريق ضلّت (١٢٩) ناقاة الرسول، فقال بعض المنافقين: ((يزعم محمدٌ أنه نبي، ولا يدري أين ناقته؟)). فأطلع الله نبيه على ما قاله؟ فقال لهم -عليه السلام-: إني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، سبحانه وتعالى. وقد دلني الله تعالى عليها. وهي في الوادي، في شعب كذا وكذا. وقد حبستها شجرة

(١٢١) أي: لو كان ما يدعون إليه نفعا دينوياً سهلاً.

(١٢٢) أي سفرًا متوسطًا: والقصد المتوسط.

(١٢٣) الشُّقَّة: المسافة، والسفر البعيد.

(١٢٤) أي: تدبيرهم وخروجهم معك.

(١٢٥) أي: جعلهم يكسلون عن النهوض معك.

(١٢٦) خبالًا: فسادًا وشرًا.

(١٢٧) أي أسرعوا بينكم بالنميمة والفساد والتخويف. يقال في الأصل. وضع البعير إذا أسرع: وأوضعه راكبه: إذا

حملة على الإسراع، وقد استعبر هنا للإسراع بالفساد والشر.

(١٢٨) أي: دبروا لك المكائد وأجالوا الفكر للضرر بك وبالمسلمين.

(١٢٩) ضلّت: ضاعت.

بزماتها). فلما وصلوا إلى تبوك لم يروا فيها جيشًا، كما كانوا قد سمعوا.

وقبل انصرافه من تبوك جاءه يوحنا صاحب أَيْلَةَ^(١٣٠)، ومعه أهل جَرْبَاءَ وأَذْرُحَ وَمِينَاءَ (وهي بلادٌ بالشَّام). فصالحوه وأعطوه الجزية. وكتب لهم كتابًا فيه أمانٌ لهم ولأموالهم ولأرواحهم، ما داموا على الصلح والعهد.

ثم استشار الرسول أصحابه في أن يجاوز تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام. فقال عمر: ((إن كنت أمرت بالسير فسر)). فقال -عليه السلام-: ((لو كنت أمرت بالسير لم أَسْتَشِر)).

ثم رجعوا من تبوك، بعد أن أقاموا بها عشرين ليلة ولم يكن حرب. وبني -عليه السلام- في طريقه مساجد.

فلما دنا من المدينة قال الرسول تطيبًا لقلوب المعذرين (وهم الذين حبسهم العذر الشرعي عن الخروج مع النبي): ((إن في المدينة قومًا ما سرتهم سيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر)).

ولما دخل الرسول المدينة، قال العباس: «أتأذن لي أن أمتدحك؟» قال: «قل لا يفضض الله فاك». فقال قصيدة منها:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتْ	الأرضُ، وضاءَتْ بُنُورُكَ الأفقُ
فنحن في ذلك الضياء، وفي النورِ	وسُبلَ الرِّشَادِ، نُخْتَرِقُ

حوادث السنة التاسعة:

وفي هذه السَّنة: وَقَدَ على الرسول وفدٌ من ثقيف فأسلموا، ودعوا قومهم أهل الطائف، فأجابوا.

(١٣٠) أَيْلَة: مدينة على ساحل بحر القلزم ما يلي الشام. وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام والقلزم بضم القاف والزاي وسكون اللام: هو البحر الأحمر.

وفيها: توفي عبد الله بن أبي بن سلول، رئيس المنافقين، فاستراح المسلمون من شرور كان يهيجها عليهم.

وفيها: أيضاً توفيت أم كلثوم، بنت الرسول وزوج عثمان بن عفان -رضي الله عنهما-.

حَجُّ أَبِي بَكْرٍ بِالنَّاسِ:

وفي ذي القعدة من هذه السنة: أمر الرسول أبا بكر أن يَحُجَّ بالناس، وأمره أن يؤذن بالناس يوم النحر: ((أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرْيَانٌ)). فلما سار بالناس نزل على الرسول أوائل سورة (براءة) فأرسل علي بن أبي طالب ليلغها للناس يوم الحجر الأكبر وقال: لا يبلغ عني إلا رجلٌ مني. وفحواها: «نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم، وإمهاهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاءوا، وإتمام العهود للمشركين، الذين لم يتظاهروا ضد المسلمين، إلى مدتها». وأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} فلم يحج في العام القابل مشرك وكان عليٌّ يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر -رضي الله عنهما-.

السنة العاشرة للهجرة

بعثات إلى اليمن:

في هذه السنة: أرسل الرسول -عليه السلام- علي بن أبي طالب في ثلاث مئة فارس، إلى بني مذحج من أهل اليمن وعَقَدَ له لواءه بيمينه. وعَمَّمَه بيده. وقال له: «سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله. فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة، ولا تبغ منهم غير ذلك. ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك» وقال له أيضاً: «إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر».

فسار علي حتى انتهى إليهم، ولقي جموعهم. فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل، فحمل عليهم المسلمون، فقتلوا منهم عشرين رجلاً فانهمزوا، فكف عن طلبهم ثم لحقهم، فدعاهم إلى الإسلام، فأجابوا، وبايعه رؤسائهم، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة أموالهم، وأن يكونوا على من وراءهم من قومهم.

ثم قفل علي -رضي الله عنه- بأصحابه، فوافى الرسول بمكة في حجة الوداع.

ثم أرسل الرسول إلى أهل اليمن من يعلمهم شرائع الإسلام. (وكانت مَخْلَافِينَ)^(١٣١). فبعث معاذ بن جبل إلى الكورة العليا من جهة عَدَنَ. وبعث أبا موسى الأشعري إلى الكورة السفلى. وقال لهما: «يسراً ولا تعسراً؛ وبشراً ولا تنفراً». وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب^(١٣٢) فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة. فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة^(١٣٣) تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم^(١٣٤) أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنها ليس

(١٣١) المخلاف: الكورة والإقليم.

(١٣٢) حيثما ذكر أهل الكتاب فالمراد بهم اليهود والنصارى.

(١٣٣) المراد بالصدقة الزكاة.

(١٣٤) كرائم الأموال: نفائسها التي تتعلق بها نفس مالكمها، أي: إن أسلموا وأعطوك الزكاة فلا تعتد على أطايب أموالهم ونفائسها، فتأخذ الزكاة منها. أو المعنى لا تمد يدك إلى أخذ شيء من أموالهم غير الزكاة. والمعنى الأول أقرب.

بينها وبين الله حجاب».

ثم انطلق كل منهما إلى عمله فمكث معاذًا باليمن حتى توفي رسول الله. أما أبو موسى فقدّم على النبي في حجة الوداع.

حجة الوداع:

وفي هذه السنة (العاشرة): حج رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحجة التي تعرف بحجة الوداع، وحجة البلاغ، وحجة الإسلام.

خرج الرسول إليها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة فسار حتى دخل مكة. وفي الثامن من شهر ذي الحجة ذهب إلى مَنًى^(١٣٥) فبات فيه. وفي التاسع منه توجه إلى عرفة. وفيها خطب حُطْبته التي تُعرف بخطبة الوداع. بين فيها أهم أصول الدين وفروعه. وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى، الذي امتن فيه على المؤمن، وهو: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } . فلا عجب أن اتخذ المسلمون ذلك اليوم عيدًا.

وفي البخاري عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أن رجلًا من اليهود قال له: «يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا». قال: أي آية هي؟ قال: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } . فقال عمر. «لقد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو قائم بعرفة يوم الجمعة». ثم رجع الرسول إلى المدينة.

وفود العرب:

ولما امتد سلطان الإسلام، وبرَّغت شمسُه على الأنام، وأدرك حقيقته الخاص والعام، رغب فيه الشيخ والغلام، فأتوه طوعًا، زَرَافَاتٍ^(١٣٦) ووُحْدَانًا^(١٣٧)، مُشَاءً وَرُكْبَانًا وشدوا الرحال

(١٣٥) مَنًى، يذكر ويؤنث والأكثر فيه التذكير.

(١٣٦) زَرَافَات: جماعات.

(١٣٧) وُحْدَانًا: آحادًا، أي واحدًا واحدًا. والوُحْدَان -بضم الواو- جمع واحد.

لاعتناقه، وجابوا المفاوز للتشرف بالدخول فيه. فكثرت الوفود على الرسول في هذه السنة والتي قبلها وأسلم كثير من قبائل العرب عن طيب نفس، إذعاناً لله، وخضوعاً لدينه. ومن الوفود: بنو حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، وقد أسلموا، إلا مسيلمة هذا، فإنه ادعى النبوة.

وفاة إبراهيم بن الرسول:

وفي هذه السنة (العاشرة) توفي إبراهيم ابن الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

انتهاء السنة العاشرة:

وقد تم لهجرة رسول الله، بانتهاء السنة العاشرة عشر سنوات، إلا شهرين وأحد عشر يوماً، وذلك لهجرته من مكة إلى المدينة.

السنة الحادية عشرة للهجرة

مرض الرسول:

فيها: جهز الرسول سرية، برئاسة أسامة بن زيد ابن حارثة، إلى أبي (وهي ناحية بالبلقاء من مؤتة حيث قُتل والده). وكان في الجيش كبار المهاجرين والأنصار، كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد. وكان أسامة شابًا لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره. ولم يتم لهذه السرية السفر لأنه ابتداء مرض رسول الله. فلما اشتد برسول الله المرض استأذن نساءه أن يُمرَضَ (١٣٨) في بيت إحداهن. فأذنَّ له أن يُمرَضَ في بيت عائشة.

خُطبة الرسول في مرض موته:

ولما تَعَدَّرَ عليه الخروج إلى الصلاة، قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». ثم خرج مُتَوَكِّمًا على علي والفضل. وتقدَّم العباس أمامهم، والنبي معصوبُ الرأس يُحُطُّ برجليه (١٣٩) حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر. فثار إليه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم. هل خلد نبيّ قبلي فيمن بُعث فأُخِلِدَ فيكم؟ ألا وإني لاحق بري، وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا. وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: { وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) } إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ { . وإن الأمور تجري بإذن الله. ولا يملنكم استبطاء أمرٍ على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحدٍ. ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه. «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم». وأوصيكم بالأنصار خيرًا، فإنهم الذين تَبَوَّؤُوا الدارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِكُمْ، أَن تَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، أَلَمْ يَشَاطِرُوكُمْ فِي الثَّمَارِ؟ أَلَمْ يَوْسِعُوا لَكُمْ فِي الدَّارِ؟ أَلَمْ يُوَثِّرُوكُمْ (١٤٠) عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ الْخَصَاصَةُ (١٤١) أَلَا فَمَنْ وَلِيَ أَن يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَيَقْبِلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَلِيَتَجَاوَزَ

(١٣٨) بمرض: يخدم في مرضه.

(١٣٩) أي: لا يستطيع أن يثبتهما على الأرض.

(١٤٠) أي يفضلوكم.

(١٤١) الخصاصة: الفقر.

عن مُسيئهم، ألا ولا تستأثروا^(١٤٢) عليهم. ألا وإني فرط^(١٤٣) لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده علي، فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي».

ولما كان يوم الأحد اشتد وجع الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وفاة الرسول:

ولما دخل يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، الذي هو تتمة عشر سنين للهجرة، فارق الرسول دنياه، ولحق بمولاه، واختار الرفيق الأعلى، على زهرة الحياة الدنيا، بعد أن أدى الأمانة حق أدائها. وهدى الناس إلى الصراط المستقيم، ودعاهم إلى الله العظيم. فلاقى من أجل ذلك مشقات جمّة وأهوالاً عظيمة. فكم أراح عَقَبَةَ^(١٤٤) كُؤُودًا، وخاض بحرًا هائجًا، وسلك مفاوز مهلكة، فثبت غير مبال بهول، ولا عابئ بمشقة. ووقف أمام تلك المَلَمَّات^(١٤٥). وسبح في تلك الغمرات^(١٤٦). إلى أن صرع الحقُّ الباطل. وأباد تلك الجحافل^(١٤٧) فنُشِرَتْ أَشْعَةُ الدِّينِ الحَنِيفِيِّ في هاتيك المَجَاهِلِ^(١٤٨). فذهب والكونُ بما فيه أَلْسِنَةُ ناطقة بالشكر له والثناء عليه؛ لأنه كان السبب الأقوى في تخليص العالم من الضلال والفجور وفساد الأخلاق، والوسيلة العظمى في تنوير الأفكار، وبث روح المدنية الحق في هذا العالم. فحسنت بذلك الحال، وسلم المآل وقد شهد له بذلك العلماء الغابرون، والفلاسفة الحاضرون.

(١٤٢) لا تستأثروا: لا تستبدوا والاستئثار بالشيء، والاستبداد به والانفراد به: بمعنى واحد.

(١٤٣) أي: متقدم عليكم وسابقكم. والفرط في الأصل، الذي يتقدم الواردين إلى الماء فيبيء لهم الإرسان والدلاء ليقى لهم.

(١٤٤) العقبة: واحدة عقبات الجبال، وهي الطريق الصعب في الجبل. والعقبة الكؤود: هي الصعبة المرتقي.

(١٤٥) الملمات: النوازل.

(١٤٦) الغمرات: الشدائد.

(١٤٧) الجحافل الجيوش العظيمة. والمراد بها جيوش الباطل.

(١٤٨) المجاهل: جمع مجهل، وهي الغلاة المهلكة التي لا يهتدى فيها. والمراد بها تلك الظلمات من الباطل والشرك والفجور التي أظلت الأمم.

خُطبة أبي بكر بعد وفاة الرسول:

وعند وفاة رسول الله «-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان أبو بكر غائبًا في السُّنْح (وهي منازل بني الحارث بن الخزرج). فلما علم المسلمون بوفاة عظم عليهم الأمر، واشتد الهول، وجاء عمر بن الخطاب منتضيًا سيفه؛ متوعدًا من يقول. «مات رسول الله». وقال: «إنما أُرسل إليه كما أُرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة».

فلما جاء أبو بكر، وأُخبر الخبر، دخل بيت عائشة، وكشف الحجاب عن وجه رسول الله فقبله وبكى. ثم خرج، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

((ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)). ثم تلا قوله تعالى: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ }، وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا، وسيجزى الله الشاكرين».

قال عمر: ((فكأنني لم أتل هذه الآية قط)).

دفنه -عليه الصلاة والسلام-:

وبقي -عليه السلام- في بيته بقية يوم الاثنين، وليلة الثلاثاء، ويومه، وليلة الأربعاء، حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم.

ثم غُسل، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة. ولما تم تجهيزه وُضع على سريره في بيت عائشة، وصلى عليه المسلمون أفرادًا بلا إمام، الرجال ثم النساء ثم الصبيان. ثم حفر له لحدٌ في بيت عائشة، حيث توفي ودفن ليلة الأربعاء في جوف الليل. ودخل القبر عليّ: والعباء وولداه، الفضل وقُثم. وهم الذين تولوا غسله وتكفينه وأمره كله. ورش قبره بالماء بلالٌ ورفع قبره عن الأرض قدر شبر.

وفي الحديث: «لا تتخذوا قبري وثنًا يُعبد من بعدي».

وتوفي -عليه السلام- ولم يترك للمسلمين سوى شيئين؛ لا يضرهم شيء ما تمسكوا بهما، وهما: كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم ما حفظه عنه الثقات من الأحاديث، التي كانت تشريعاً للأحكام، وتبييناً وتوضيحاً لمقاصد القرآن الكريم.

وقد هم الرسول وهو في مرض موته، أن يكتب للأمة كتاباً لا تضل بعده أبداً. روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما اشتد بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وجعه، قال: «أئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً». فقال عمر: «إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلفوا وكثر اللغط، فقال: قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع».

عُمره -صلى الله عليه وسلم-:

عاش -عليه السلام- ثلاثاً وستين سنة، قضى منها أربعين سنة قبل النبوة، وثلاث عشرة سنة في مكة بعدها، وعشر سنين في المدينة بعد الهجرة.

وقد اتفق يوم ولادته وهجرته ووفاته هو يوم الاثنين؛ الثاني عشر من شهر ربيع الأول، صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلنا ممن يرد حوضه، وينال مرافقته في أعلى عليين. ثم إنا نحمده تعالى أن جعلنا من أمته، كما نسأله أن يتوفانا على ملته، ويرشدنا إلى العمل بمقتضى شريعته، ويثبتنا على هدايته، ويغنيننا (سبحانه وتعالى) في الدنيا والآخرة برحمته. آمين.

الخلافة بعده:

انتقل الرسول من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية، ولم يعهد لأحد بعده بالأمر، ليكون خليفة للمسلمين^(١٤٩).

روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- خرج من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: «يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: «أصبح بحمد

(١٤٩) غير أن الشيعة يقولون: إن النبي «صلى الله عليه وسلم وآله وسلم» أوصى بها بالنص لسيدنا علي بن أبي طالب (عليه السلام).

الله بارئاً». فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب -رضي الله عنه- فقال: «أنت والله بعد ثلاث (١٥٠) عبد العسا (١٥١). وإني والله لأرى رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- سوف يتوفى في وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-، فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا». فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-، فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني لا أسأله رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-.

أول خليفة في الإسلام:

وبعد وفاة الرسول، اختلف الصحابة فيمن يتولى الأمر بعده فطلبها الأنصار لأنفسهم، فأراد عمر الكلام، فقال له أبو بكر: «على رسلك» (١٥٢) ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، نحن المهاجرين، أول الناس إسلامًا، وأكرمهم أحسابًا، وأوسطهم أرا، وأحسنهم وجوهًا، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحما، برسول الله -صلى الله عليه وسلّم-. أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ }. فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفء، وأنصارنا على العدو، وآويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرًا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله (١٥٣).

ثم قال عمر لأبي بكر: أمدد يدك أبايعك، فمد يده، فبايعه، وبايعه الناس. وهو أول خليفة في الإسلام.

(١٥٠) أي: بعد ثلاث من الليالي بأيامها.

(١٥١) أي: تصير مأمورًا بموته وولاية غيره.

(١٥٢) أي: على مهلك.

(١٥٣) لا تحسدوهم على ذلك، أو تبخلوا عليهم به.

الخاتمة

[في ذريته وأهله وقرابته - عليه الصلاة والسلام -]

أولاده - عليه السلام -:

أبناء الرسول ثلاثة، وهم: القاسم^(١٥٤)، وإبراهيم^(١٥٥) وعبد الله^(١٥٦). وأما بناته فهن أربع: زينب^(١٥٧)، ورقية^(١٥٨) وأم كلثوم^(١٥٩)، وفاطمة البتول^(١٦٠)، وهي الزهراء. على الجميع السلام.

وكل أولاده من خديجة بنت خويلد إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية.

وأولاده كلهم وُلدوا قبل النبوة، إلا فاطمة فبعد النبوة بسنة واحدة على المعتد^(١٦١)، وإلا إبراهيم فإنه ولد في السنة الثامنة من الهجرة.

وأولاده كلهم ماتوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر.

أزواجه وسَرَائِيه الطاهرات

قد اختلف في أزواجه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . والمتفق عليه أنهن إحدى عشرة امرأة: ست من قريش، وهن: خديجة^(١٦٢) بنت خويلد (ولم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها)، وعائشة^(١٦٣) بنت أبي بكر الصديق، وحفصة^(١٦٤) بنت عمر، وأم حبيبة^(١٦٥) بنت أبي سفيان، وأم

(١٥٤) هو أول ولد له قبل النبوة، وبه كان يكنى وعاش سنتين.

(١٥٥) توفي بعد سبعين يومًا من مولده.

(١٥٦) ويلقب بالطيب والطاهر وقد مات صغيرًا.

(١٥٧) هي أكبر بناته، أدركت الإسلام وأسلمت، ثم أسلم زوجها وابن خالتها أبو العاص لقيط الربيع.

(١٥٨) زوجها عثمان بن عفان.

(١٥٩) تزوجها عثمان أيضًا بعد وفاة أختها رقية.

(١٦٠) زوجها علي بن أبي طالب، وتلقب بالبتول لانقطاعها عن نساء زمانها فضلًا ودينًا.

(١٦١) وقيل ولدت قبل النبوة بخمس سنين وليس بالقول المقبول.

(١٦٢) تُوفيت سنة ١ من النبوة.

(١٦٣) تُوفيت في المدينة سنة ٨٥ أيام معاوية.

(١٦٤) تُوفيت سنة ٤٥ أيام معاوية.

(١٦٥) تُوفيت في المدينة سنة ٤٤ أيام أخيها معاوية.

سلمة^(١٦٦) هند بنت أبي أمية، وسودة^(١٦٧) بنت زمعة، وأربعٌ عربياتٌ، وهن: زينب^(١٦٨) بنت جحش، من أسد بن خزيمه، وميمونة^(١٦٩) بنت الحارث الهلالية، وزينب^(١٧٠) بنت خزيمه الهلالية (وتعرف بأُم المساكين)، وجويرية^(١٧١) بنت الحارث من بني المصطلق، وواحدةٌ من بني إسرائيل وهي صفية^(١٧٢) بنت حبي بن أخطب، من بني النضير.

ومات منهن عنده -عليه السلام- اثنتان، هما: خديجة وزينب أم المساكين. وتوفي -صلَّى الله عليه وسلَّم- عن تسع نسوة.

وأما سراريه، ففيل إنهن أربع: مارية^(١٧٣) القبطية أم إبراهيم ابن النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهي التي أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية، وريحانة^(١٧٤) القرظية، وواحدة وهبتها له زينب بنت جحش، والرابعة أصابها في بعض السي.

أعمامه أبناء عبد المطلب:

وهم عشرة: أبو طالب (واسمه عبد مناف) والزُّبَيْرُ وحمزة^(١٧٥)، والمُقَوِّم وأبو الفضل العباس^(١٧٦) (وهو أخوه من الرِّضَاع أيضاً) وضرارٌ والحارث، وقثم، وأبو لهب (واسمه عبد العزَّى)، والغيداق. ولم يسلم منهم إلا حمزة والعباس. واختلفوا في إسلام أبي طالب. ويُرجَّح بعض العلماء إسلامه.

(١٦٦) تُوفيت سنة ٩٥ أيام معاوية.

(١٦٧) تُوفيت بالمدينة سنة ٤٥ أيام معاوية.

(١٦٨) ماتت في المدينة سنة ٠٢ في أيام عمر.

(١٦٩) توفيت سنة ١٥ بسرف أيام معاوية. وفي هذا الموضوع كان زواجه -عليه السلام- بها سنة سبع، كما قدمنا

وسرف بوزن كيف: موضع على بضعة أميال من مكة.

(١٧٠) تُوفيت في حياته سنة ٤ للهجرة.

(١٧١) ماتت سنة ٥٥ أيام معاوية.

(١٧٢) ماتت سنة ٠٥ في أيام معاوية.

(١٧٣) ماتت سنة ٦١ أيام عمر.

(١٧٤) ماتت في حياته سنة ٠١ للهجرة.

(١٧٥) قتل يوم أحد وله تسع وخمسون سنة.

(١٧٦) تُوفي في خلافة عثمان وله ثمانين وثمانون سنة.

عَمَّاتُه بنات عبد المطلب:

وهن ست: صفية (أم الزبير بن العوام) وعاتكة، والبيضاء (وهي أم حكيم)، وبرة، وأميمة (وهي توأمه واليد الرسول) -أي: كانت معه في بطن واحد-، وأروى، وأسلم منهن صفية. واختلف في إسلام عاتكة وأروى.

أُمُّه من الرضاع وحاضنته:

أُمُّه من الرضاع حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه. وزوجها أبو كبشة.

وأرضعته أيضًا ثوية جارية أبي هلب (وهي التي أعتقها أبو هلب عندما بشرته بميلاد الرسول) -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وقد اختلف العلماء في إسلامها وإسلام حليلة وزوجها. وكانت حاضنته أم أيمن بركة بنت ثعلبة، أم أسامة بن زيد بن حارثة.

هيئته وبعض أحواله

كان -عليه الصلاة والسلام- تامَّ الخلق، حَسَنَ المنظر، تَلَوَّحَ عليه سِيما الوقار والهيبة. وكان أَحْسَنَ النَّاسِ حُلُقًا، أبيضَ الوجه، أَزْهَرَ اللَّوْنِ^(١٧٧)، حَسَنَ الفم. وكان عظيم الهامة^(١٧٨)، صَلَّتَ الجبين^(١٧٩)، أَنْجَ الحاجبين^(١٨٠)، عظيم الجبهة، أَهْدَبَ الأشفار^(١٨١)، أَدْعَجَ العينين^(١٨٢)، أَجْلَهما^(١٨٣) أَقْنَى الأنف^(١٨٤)، أسيل الخدين^(١٨٥)، كَثَّ اللحية^(١٨٦). وكان شَتَنَ الكفَّين

(١٧٧) أي: أبيض مشرق الوجه.

(١٧٨) الهامة: الرأس.

(١٧٩) الجبين الصلت: هو الأملس البراق.

(١٨٠) أي: دقيق الحاجبين من غير قرن. هذا هو المشهور ويرى أنه كان مقرون الحاجبين وبه وصفه علي -رضي الله عنه-.

(١٨١) الأهدب: تام الهدب، والهدب ما نبت من الشعر على أشفار العين. والأشفار وشفر، بضم الشين. هي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر.

(١٨٢) أي: شديد سوادها مع سعتيها.

(١٨٣) الأنجل: الواسع العينين.

(١٨٤) أي: محدودة.

(١٨٥) الحد الأسيل: هو اللين المستطيل بلا ارتفاع الوجنة.

(١٨٦) أي: كثيفها.

والقدمين^(١٨٧)، عَبَلَ الذِّرَاعَيْن^(١٨٨)، رَحَبَ الكتفين، واسع الصدر. وكان ليس بالطويل ولا القصير، وهو إلى الطول أقرب.

وكان شعره رجلاً^(١٨٩)، لا سَبْطاً^(١٩٠) ولا جَعْدًا قَطَطًا^(١٩١) وكان بين أذنيه وعاتقه، وفي رواية إلى أنصاف أذنيه. وكان يرجله^(١٩٢)، وكان يفرقه تارة، ويسرحه أخرى. ثم رجع إلى الفرق. ولم يرو أنه حلق رأسه الشريف في غير نسك حج أو عمرة. وكان في رأسه ولحيته نحو عشرين شعرةً بيضاء. وكان حسن الصوت، يبلغ صوته حيث لا يبلغه صوت غيره. وكان ضحكه لا يتجاوز ظهور نواجذه، وكان أكثر ضحكه التبسم. وكان مشيه تَكْفُؤًا^(١٩٣)، كأنما يَنْحَطُّ في صلب^(١٩٤) وكان إذا وطئ بقدمه وطئ بها كليها.

وكان إذا التفت يلتفت بجميع بدنه لا بوجهه وحده، وكانت الرائحة الطيبة صفته وإن لم يمس طيبًا.

ولم يتشاءب، ولم يتجشأ قط.

شَمَائِلُهُ وَأَخْلَاقُهُ - عَلَيْهِ السَّلَام -

كما كان - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أكمل الناس خلقًا، كان أكملهم خلقًا، وأعلاهم مزيةً، وأسماهم عقلاً، محبًّا للفقراء، رؤوفًا بالناس رحيماً بهم، لا ينفر جليسه.

وكان إذا حضر يجلس حيث ينتهي به المجلس.

وكان أصحابه لا يقفون له عند حضوره؛ لأنهم يعلمون منه كراهته لذلك.

(١٨٧) أي: غليظ أصابعهما.

(١٨٨) أي: ضخمهما.

(١٨٩) أي: بين السبوطية والجعودة.

(١٩٠) السبوط: المسترسل.

(١٩١) القَطَط: هو الجعد القصير.

(١٩٢) يرجله: يمشطه.

(١٩٣) التَّكْفُؤُ: الميل إلى سنن المشي، وهو أن يمشي هونًا كما تتمايل النخلة.

(١٩٤) الصيب: المكان المنحدر.

وكان يغضب إذا انتهكت حرمات الله، ولا يغضب لنفسه. ولا ينتقم ممن آذاه. بل يعفو عنه ويصفح. قالت عائشة: «ما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منتصرًا من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى. وما ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما ضرب خادمًا ولا امرأة».

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: (لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- سبًا ولا فحاشًا ولا لعائنًا. كان يقول لأحدنا عند المعتبة^(١٩٥): (ما له؟ ترب جبينه)^(١٩٦)).

وكان شديد الخوف من الله كثير الخشية؛ على علو منصبه ورفيع رتبته، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(١٩٧).

وكان شجاعًا قويًا، جوادًا، كريمًا، إلى غير ذلك من الأخلاق العالية، والأوصاف الكريمة، التي كانت صفة غريزية فيه -صلى الله عليه وسلم-.

وكان خُلِقَ القرآن، فكما أن معاني القرآن يكل الوصف عنها فكذلك أوصافه الكريمة، يعجز القلم واللسان عن نعتها. ومن أحب التوسع في ذلك فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الموضوع، فإن فيها العجب العجيب.

«فائدة» حسن الخلق: هو ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها أن يأتي بالأفعال الجميلة بلا تكلف.

(١٩٥) المعتبة: العتاب، وهي بفتح التاء وكسرهما.

(١٩٦) ترب جبينه: هي كلمة جرت على لسان العرب لا يريدون حقيقتها، وهو التصاقها بالتراب، والمراد بها في كلام الرسول دعاء لمن يعاتبه بالطاعة، أي يصلي فيترب جبينه، أي يلتصق بالتراب.

(١٩٧) مبحث عصمة الأنبياء عن الذنوب:

اعلم أنه مما يجب اعتقاده أن الأنبياء «عليهم السلام» منزهون عن الصغائر والكبائر. لكن قد ورد في القرآن الكريم نسبة بعض الذنوب لبعض الأنبياء فظن من لا روية له ولا دراية أنها معاص حقيقية، وذنوب وقعت منهم البتة، ومن أوتي الأنصاف والفهم يعلم أن ما نسب إليهم من المعاصي صادر أما عن نسيان، وإما عن اجتهاد، وإما أنه ليس من الذنوب قطعًا، وإنما هو من باب الأمر الصغير يستكبر من العظيم. فكانوا (عليهم السلام) كثيرًا ما ينسبون الذنب لأنفسهم، وهو لم يخرج في الحقيقة عن باب المباحات. أو المكروهات وإنما عدها الله عليهم ذنوبًا نظرًا لشرف رتبهم وعلو مناصبهم وفي الحقيقة أن ذنوب الأنبياء كحسنات الصالحين من سائر الناس.

معيشتة - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

كان الرسول لم يشبع من طعام قط، وكان ينهى عن الشبع؛ لما فيه من إذهاب الفطنة، وجلب الأمراض، وتثقيل المعدة، فإن المعدة بيت الداء. وأكثر الأمراض ناشئ عن امتلاء البطون بالمأكول كما قال الشاعر:

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ

وقد قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ما ملأ آدمي وعاءَ شراً من بطن. بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه»^(١٩٨). وكان لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً. فما قرب إليه شيءٌ من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم. وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

وكان يأكل ما تيسر، فإن لم يجد صبر، وكان يسمي الله على أول شرابه وطعامه، ويحمده بعد الكفاية منها.

وكان، إذا شرب ناول من على يمينه، وإن كان على يساره من هو أكبر منه.

نموذج من معجزاته

المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة، يظهره الله على يد مدعي النبوة، تأييداً لدعواه.

والمعجزة قسمان: معنوية وحسية.

فالأولى: يعرفها ويصدق بها ذوو البصائر النيرة، والعقول السليمة، وهي عبارة عما انطوى عليه ذلك النبي من الأخلاق الفاضلة والمزايا السامية، وما عُرف به من العمل بمقتضى الحق، والسير في جادة الصدق، وما يلوح عليه من الإمارات الدالة على صدق مدعاه.

(١٩٨) قال ابن القيم: أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يكفيه لقيمات -أي: لقم قليلة- يقمن صلبه، فلا تسقط قوته ولا تضعف معها. فإن تجاوزها فليأكل في ثلث بطنه. ويدع الثلث الآخر للماء والثالث للنفس. وهذا من أنفع ما يكون للبطن والقلب، وإنما يقوي البدن بحسب ما يقبل من الغذاء لا بحسب كثرته.

والثانية: يطلبها من لم تصل رتبته إلى إدراك صدق الرسول بمجرد الاطلاع على أحواله وأخلاقه، ولم ترتفع بصيرته وعقله إلى مقام تلك المعرفة.

وقد كان لرسولنا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحظ الأوفر من كلتا المعجزتين: المعنوية والحسية، أما الأولى فقد عرفت جزءًا يسيرًا جدًّا منها في النبذة السابقة، ونورد عليك الآن بعضًا يسيرًا أيضًا من معجزاته الحسية.

فمنها: انشقاق القمر له نصفين، وقد طلبت منه العرب ذلك. فأشار -عليه السلام- بإصبعه إلى القمر فشَقَّ فلقين^(١٩٩) وقد رآه القاصي والداني. وقد ذكرت هذه المعجزة العظيمة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ }.

(١٩٩) وقد ذكرت بعض الجرائد الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان العربية، التي كانت تطبع في قسطنطينية، حاصلها: أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بني عام كذا، الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم، وهو انشقاق القمر نصفين. حرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا ومولانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. اهـ، من هامش (باكورة الكلام على حقوق المرأة في الإسلام).

أقول: قد علمت أن هذه المعجزة ذكرت في القرآن: والقرآن كما لا يخفى على ذي بصيرة منقول إلينا نقلًا متواترًا لا يتطرق إليه الشك والريب فهي بلا شك كانت تتلى على رؤوس الناس من مؤمن وكافر، فلو لم يكن الانشقاق صحيحًا، بل كان مجرد كذب لنقل إلينا ولو عن طريق المخالفين لنا، أما ولم ينقل أحد المعارضة في ذلك؛ فهي مسألة حقيقية لا مرية فيها، لأن أعداء الدين في ذلك الوقت كانوا له بالمرصاد، يتطلعون إليه ليروا له هفوة أو غلطة ليأخذوا بها عليه. وكيف يمكن ذلك؟ والقرآن كلام الله.

ولما ظهرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا ورد إلينا كتاب من أحد أعلام العلم يأخذ فيه علينا اعتمادنا لمعجزة انشقاق القمر، لأنها تخالف قواعد علم الفلك فأجبناه على ذلك بما يأتي:

معجزة انشقاق القمر لم يدعي إلى الجزم بها إلا سياق الآيات وما ألهمني الله فهمه منها، ولم أقلد بذلك رأيًا، ولا ما ورد فيها من الأخبار، وإن جزم طائفة من العلماء بتواتره. ثم زادني يقينًا أن قرأت عنها ما قرأت من الأثر التاريخي الصيني، وقد نقلته في السيرة، وقوله تعالى: { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } بعد ذكر الانشقاق يؤيد ذلك وأنه قد حصل. ويبعد حمله على الاستقبال كما قلت طائفة من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي والألوسي وغيرهم. وأما أن الحكم بذلك يرد عليه كثير من قواعد العلم الفلكي الجديد، ولا يخفى على الأخ الفاضل أنها من قسم الخوارق، التي يستدعي الدين الاعتقاد بها إجمالًا. فالاعتقاد بها والاعتقاد بالإسراء وإحياء الموتى وانفلاق البحر سواء. فما يرد عليها من قواعد الفلك يرد عليها من قواعد الطبيعة، والملخص من ذلك كله أن للطبيعة خوارق، والطبيعيون أنفسهم لا يستطيعون إنكارها، بل يثبتونها ويقررون بجهل أمرها ويسمونها فلتات الطبيعة وإن لهم من تلك الخوارق أكثر مما للمليين، غير أنهم يرون القنذي في أعين غيرهم وأعينهم ملأى بالحجارة، بل أشهر علمائهم يقر بأنهم إلى الآن لم يكتشفوا كثيرًا من أسرار الطبيعة، وإن هناك أشياء وراء الطبيعة لا يستطيع حلها. أقول: لم يدعي إلى الاعتقاد بها تقليد أو أحاد الأحاديث، وإنما سياق الآيات يثبتها، وما صح من الروايات يعضدها، فلذا جزم بها، وإن رأيتم رأيًا في الموضوع فابعثوا، إلي، لأنني وأيم الله أحب الانتقاد، لأن فيه من الفوائد ما لا يكاد يحصى.

ومنها: نبع الماء من بين أصابعه عندما وضع يده الشريفة في إناء فيه ماءً قليلًا، حين اشتد العطش بالصحابة الكرام، وقد كانوا في السفر.

ومنها: تكثير الطعام القليل، وكانوا مسافرين أيضًا.

وقد بصق، يوم خيبر في عيني علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وكان بهما وجعٌ كما في الصحيحين.

وأعظم معجزاته، وأولاها بالدلالة على صدقه، هو (القرآن) كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذلك الكتاب الذي أخرس الفصحاء، وأسكت البلغاء، وحير الفلاسفة، وأدهش الساسة، وخبلى عقول العلماء. ذلك هو (القرآن) الذي سجدت له العرب وعجزت عن معارضته، بل عن الإتيان بأقصر سورة من مثله فلما علموا أن لا طاقة لهم بذلك عمدوا إلى السيف والسنان، وتركوا المعارضة باللسان. ففيه من العلم الباهر، والفلسفة المدهشة، والإرشاد الصحيح، ما يقف عنده كل إنسان حائرًا. وفي الجملة فقد حوى ما فيه الهداية إلى سعادة الدارين. وهناءة الحياتين.

فصاحته -عليه السلام-:

كان الرسول أفصح الناس، وأحلاهم منطقًا، وأعذبهم كلامًا وأحسنهم بيانًا. وكان يتكلم بجوامع الكلم. وكان يتكلم بالكلام الفصل يبينه فيحفظه من كان جالسًا إليه.

وكان لا يسرد الكلام سردًا، بل كان يتأنى فيه، بحيث لو عدده عادًا لأحصاه: وقد ورد أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه. وكان يكلم العرب كلها على اختلاف لغاتها، حتى قال له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- إنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره^(٢٠٠).

(٢٠٠) من شاء فليرجع إلى كتب الحديث ير من ذلك العجب العجيب ونوصي الطلاب أن يقرأوا قسم البلاغة النبوية من كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للأستاذ الراجعي المتقدم ذكره، فيجد فيه ما ننشر له صدورهم.

